# الاسلام



## على مفترق الطرق

تأليف
**محمد أسد**
(ليوبولد فايس)

نقله الى العربية
**الدكتور عمر فروخ**

الطبعة الثالثة ١٩٥١

دار العلم للملايين – بيروت

الطبعة الاولى ١٩٤٦
الطبعة الثانية ١٩٤٨
الطبعة الثالثة ١٩٥١

اهداء الكتاب

الى الشباب المسلم

المؤلف

# ملاحظة تتعلق بالطبعة الثالثة

•

لقد لفت نظرنا نفر من المفكرين المشتغلين بقضايا العرب والاسلام الى نقطتين قيمتين فيما يتعلق باخراج هذا الكتاب :

١ – إبراز عدد من الجمل التي تعد زبدة آراء المؤلف بحرف ظاهر جلي يميزها مما عداها من الجمل .

٢ – شرح بعض التعابير والآراء حتى لا تستغلق على القارىء العادي .

اما فيما يتعلق بالملاحظة الاولى فقد طبعت الجمل المقصودة بحرف اكبر حجماً . واما فيما يتعلق بالملاحظة الثانية فكانت المهمة أصعب . لقد طلب مني ان اعلق على التعابير والآراء المقصودة بحواشي . ولكن الحواشي تكون عادة بحرف صغير جداً ، ثم هي فوق ذلك تزعج القارىء بنقل نظره مراراً بين اعلى الصفحة واسفلها ، ثم هي ايضاً – وهذا اكثر اهمية – تقطع على القارىء سلسلة أفكاره . من اجل ذلك اخترت ان اضم هذه التفاسير والتعاليق في المتن نفسه بعد ان حصرتها بين معقوفتين ، هكذا : [ ]

☆

ولا يسعني هنا الا ان اشكر نفراً من الاصدقاء الذين كلفوا انفسهم عناء المراجعة للكتاب ، ثم أشاروا الى الاماكن التي يحسن معالجتها على اساس الملاحظتين السابقتين .

ع ف

# مقدمة الطبعة العربية

للدكتور مصطفى خالدي

●

بين مئات الكتب التي اتفق لي أن قرأتها في اللغات الاجنبية، من تلك التي تبحث في الاسلام اعجاباً به او تحليلًا له او تهجماً عليه ، لم أجد اخلق من هذا الكتاب بالنقل الى اللغة العربية . من أجل ذلك رغبت الى صديقي الدكتور عمر فروخ ان يحقق عني هذه الامنية ويقوم باداء هذا الواجب ، فان ذلك داخل في نطاق اختصاصه هو ، بعيد عن اختصاصي أنا .

ولم يكن الذي دفعني الى وضع هذا الكتاب بين ايدي الشباب المسلم أن هذا الكتاب اوسع الكتب في موضوعه ، ولا اجمعها في الناحية التي تناولها ، ولكن لان صاحبه قد صارح المسلمين بحقائق قلّ ان جرؤ غيره على التصريح بها : انه درسٌ دقيق لحال المسلمين اليوم من الناحية الثقافية والروحية . ومع ان ثمت سحابة كثيفة من التشاؤم تحوم حول نفس المؤلف ، فان هناك أيضاً بريقاً ساطعاً من الامل باستعادة الاسلام غابر مجده ورجوع المسلمين الى قوتهم الاجتماعية والثقافية الاولى . هذا البريق الساطع من الامل يتلخص عند المؤلف في جملة قصيرة : « رجوع المسلمين الى التمسك بحقيقة

دينهم ، وهذا بلا ريب راجع الى الاخذ بالقول المأثور: « لا يصلح آخر هذا الامر الا بما صلح به اوله ». وتقوم حجة المؤلف في ذلك على ان الدين الذي استطاع ان يجمع العرب منذ اربعة عشر قرناً ويجعل منهم قوة عظيمة في السياسة والعلم والاجتماع يستطيع ان يقدّم للمسلمين اليوم ما قدم لهم بالأمس: دستوراً للحياة لا تجد مثله في النظم الاجتماعية والدينية والخلقية من تلك النظم التي تعرضت منذ فجر التاريخ حتى اليوم لتهذيب البشر . ان الاسلام ليس ديناً لأمة خاصة ولا ديناً لبلد بعينه ولا ديناً يناسب زمناً واحداً ، انه دين يتفق مع كل مكان وزمان ويصلح لكل قوم ولكل حال من احوال المدنية . وان الدين الذي خلق عظمة العرب الماضية وعظمة غير العرب من الذين اعتنقوه في مراحل التاريخ لقادرٌ على ان يعيد الى المسلمين عظمتهم التي فقدوها من جراء تهاونهم الطويل . ثم ان الاسلام اقدر الاديان كلها على خلق القومية الصحيحة في الامم .

والمسلمون اليوم – وغير المسلمين ايضاً – في حاجة ، بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها الى الطمأنينة المنبعثة من القلب . ولا يتم مثل ذلك الا بالرجوع ، بعد تلك الكوارث التي روعت العالم ستة اعوام كاملة ، الى شيء من الاعتبار الروحي في الحياة بعد ان طغت الشهوة المادية الجامحة على كل صغيرة وكبيرة في حياتنا اليومية . وليس معنى ذلك ان ننصرف عن الكفاح المادي في الحياة ولا ان نعتزل العالم لنعيش عيشة صوفية بعيدة عن تحمل تبعات الحياة وعن تجشم تكاليفها . لا ، انني احب ان ارى

الحياة من جميع وجوهها ، واحب فوق ذلك ألا يطغى وجه منها على غيره ، ولا ان يتضاءل احدها حتى يتلاشى في سائرها . وما الدين الا وجه من اوجه الحياة . على ان ثمت فارقاً بين الاسلام وبين غيره من الاديان في هذه الناحية . الاسلام لا يسعى للآخرة دون الدنيا ، ولا هو يهتم للدنيا وحدها دون الآخرة ، ولكنه دين ينظر الى الحياة الانسانية على انها وحدة كاملة بكل ما فيها : ان الاسلام يهتم بالحرب كما يهتم بالسلم ،ويستحسن الزهدالمعتدل كما يحث على الاخذ من الدنيا بنصيب كبير .

ولا حاجة الى القول بان الاسلام أحلّ العقل مكاناً علياً : لقد جاءالاسلام لخير البشر فلم يحرّم ما فيه خيرهم ، ثم هولم يجبرهم على الاغتراف من هذا الخير ، ولكنه بيّن للناس ما فيه خيرهم وشرهم ، ثم وهبهم عقلاً يختارون به لانفسهم : «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها . » من أجل ذلك امتاز الاسلام بخاصتين : اولاهما أن تأوّل بعض فروعه يختلف باختلاف الزمان والمكان حتى توافق هذه الفروع كل زمان ومكان . وثانيهما انه دين يخالط الحياة كلها ، فالسياسة والعلم والفلسفة والاحسان والحرب والتجارة والزواج والدولة والاسرة كلها تنطوي في الاسلام كما تنطوي الجبال والانهار والاشجار في نور الشمس . فاهمال الاسلام اذن ليس معناه اهمالاً للدين فحسب ، بل اهمال للحياة باسرها .

هذا ما يجده القارىء في هذا الكتاب مفصلاً منسقاً .

ويجدر ان نشير هنا الى ان المؤلف نمسوي الاصل اعتنق

الاسلام وتسمى باسم « محمد أسد » [1] ثم احب ان يكتب هذا الكتاب على ما تراه مبسوطاً في مقدمته هو .

ولا بد لي في الختام من شكر عدد وافر من الاخوان الذين شركوني في الرأي واحبوا ان يروا هذا الكتاب في اللغة العربية، واخص بالذكر منهم الصديقين الكريمين الدكتور محمد امين تلحوق والسيد خليل واكد حماده اللذين حاولا نقل هذا الكتاب ايضاً وبذلا فيه جهداً كبيراً قبل ان يتولى الدكتور عمر فروخ نقله كاملاً . ان الغاية من هذا العمل فائدة المجموع وتحقيق مثل اعلى والقيام باصلاح روحي قبل كل شيء آخر . ولا ريب بان هذا الكتاب مطلع حركة مباركة ستتسع مع الايام ، وسيكون لها ثمر يانع ان شاء الله .

الدكتور مصطفى الخالدي

---

(١) ذكر في الطبعتين السابقتين ان اسم المؤلف اصبح بعد اعتناقه الاسلام محمد اسعد ، والصواب محمد اسد . وهو اليوم رئيس قسم الشرق الاوسط في وزارة الخارجية الباكستانية .



الاستاذ محمد أسد

مؤلف الكتاب

# مقدمة المؤلف

من النادر ان تجد عهداً مضطرباً من الناحية الفكرية كعهدنا هذا [ الذي نعيش فيه اليوم ] . اننا لا نجابه مشاكل شتى تحتاج الى حلول لم يسبق أن احتاج اليها من جاء قبلنا فقط ، بل ان هذه المشاكل تبرز لنا من نواح مختلفة تماماً عن كل شيء تعودناه الى اليوم . ان المجتمع الانساني يخضع في كل مكان لتبدل أساسي . ان هذا التبدل يختلف بين بلد وبلد ، ولكننا نلمح في كل مكان ان ثمت قوة تسوق الناس سوقاً لا تدع لهم معه مجالاً للتوقف ولا للتردد .

وليس العالم الاسلامي بمعزل عن ذلك ، فاننا نرى هنا ايضاً ان ثمت عادات قديمة وآراء تختفي تدريجاً ، ولكن لتظهر ثانية في اشكال جديدة . فالى اين سينتهي هذا التطور ؟ وعند أي حد سيقف ؟ والى أي مدى تراه يتفق مع رسالة الاسلام الثقافية ؟

ان هذا الكتاب لا يدعي القدرة على بسط رد مستوف [ وجواب شاف ] على هذه الاسئلة كلها ، إذ أن مجاله الضيق لن يتسع الا للبحث في مشكلة واحدة من تلك المشاكل التي تواجه المسلمين اليوم : تلك هي الموقف الذي يجب ان يتخذه المسلمون

تجاه المدنية الاوروبية . على ان تشعب الموضوع اقتضى ان يتناول البحث بعض النواحي الاساسية في الاسلام وعلى الاخص فيما يتعلق بالسنة [1] . ولقد كان من المستحيل ان اقدم هنا اكثر من موجز بسيط لقضية تضيق عنها المجلدات الضخمة . ولكن على كل حال — او ربما : من اجل ذلك — اشعر بالثقة من ان هذا المجمل المختصر سينكشف عن حمله الآخرين على زيادة التفكير في هـــذه المسألة المهمة [2] .

☆

والآن يجب ان اقول كلمة عن نفسي ، اذ يحق للمسلمين حينما يخاطبهم رجل مهتدٍ ان يعلموا كيف اعتنق ذلك الرجل الاسلام ، ولماذا اعتنقه :

في عام ١٩٢٢ تركت النمسة بلادي لأتجول في افريقية وآسية بصفتي مراسلاً لبعض امهات الصحف الاوروبية . ومنذ ذلك الحين قضيت كل اوقاتي تقريباً في الشرق الاسلامي . ولقد كان اهتمامي بالشعوب التي احتككت بها في اول امري اهتمام رجل غريب . لقد رأيت نظاماً اجتماعياً ونظرة الى الحياة تختلف اختلافاً اساسياً مما هي الحال في اوروبة . ومنذ البداءة الاولى نشأ في نفسي ميل الى ادراك للحياة اكثر هدوءاً — او اذا شئت — اكثر انسانية ،

---

(١) السنة هي مجموع الاعمال والاقوال التي رويت عن محمد رسول الله .

(٢) ان اتساع الموضوع —موضوع مسايرة الاسلام لحوادث العالم الجارية— هو الذي جعل المؤلف يوجز في الكلام ، فيلم هو بالنظرة العامة ويترك مهمة التوسع للباحثين في تفاصيل هذا الموضوع العظيم .

اذا قيست تلك الحياة بطريقة الحياة الآلية العجلى في اوروبة . ثم قادني هذا الميل الى النظر في اسباب هذا الاختلاف .

وهكذا اصبحت شديد الاهتمام بتعاليم الاسلام الدينية. إلا ان هذا الميل لم يكن ، في الزمن الذي نتكلم عنه ، كافياً لجذبي الى حظيرة الاسلام ، ولكنه كان كافياً لأن يعرض امامي رأياً جديداً في إمكان تنظيم الحياة الانسانية مع أقـــل قدر ممكن من النزاع الداخلي واكبر قدر ممكن من الشعور الاخوي الحقيقي. ان الحياة الاسلامية في الواقع تظهر ، على كل حال ، في ايامنا الحاضرة بعيدة جداً عن الامكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الاسلام . من ذلك مثلاً أن كل ما كان في الاسلام تقدماً وحيوية اصبح بين المسلمين اليوم تراخياً وركوداً ، وكل ما كان في الاسلام من قبل كرماً وإيثاراً أصبح اليوم بين المسلمين ضيقاً في النظر [ وأنانية ] وحباً للحياة الهينة .

لقد شجعني هذا الاكتشاف ، ولكن الذي حيرني كان ذلك التباعد البين بين الماضي والحاضر . من اجل ذلك حاولت الاقتراب من هـــذه المشكلة البادية امامي من ناحية اشد صلة : لقد تخيلت نفسي واحداً من الذين يضمهم الاسلام . على ان ذلك كان تجربة عقلية بحتاً ، ولكنه كشف لي في وقت قصير عن الحل الصحيح . لقد تحققت ان ثمت سبباً واحداً فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين ، ذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على ان المسلمين اخذوا ، شيئاً فشيئاً ، يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية . فنتج من ذلك ان الاسلام ظل بعد ذلك موجوداً ، ولكنه كان

جسداً بلا روح . ثم ان العنصر الذي خلق قوة العالم الاسلامي من قبل هو المسؤول الآن عن ضعف المسلمين : فان المجتمع الاسلامي بُني منذ اوله على اسس دينية ، وضعف هذا الاساس قاد بالضرورة الى ضعف البناء الثقافي فيه ، وربما كان سبباً لاضمحلاله بالكلية .

وكنت كلما زدت فهماً لتعاليم الاسلام من ناحيتها الذاتية، وعظم ناحيتها العملية ازددت رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين الى هجر تطبيقها تطبيقاً تاماً على الحياة الحقيقية . لقد ناقشت هذه المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين في جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب الى هضبة البامير ( في الهند ) ، ومن البوسفور الى بحر العرب ، فاصبح ذلك تقريباً شجى في نفسي طما في النهاية على سائر اوجه اهتمامي بالعالم الاسلامي من الناحية الثقافية . ثم زادت رغبتي في ذلك شدة حتى اني — وانا غير المسلم — اصبحت اتكلم الى المسلمين انفسهم مشفقاً على الاسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم. لم يكن هذا التطور بيناً في نفسي ، الى أن كان يوم — وذلك في خريف عام ١٩٢٥ — وانا يومذاك في جبال الافغان ، فقد تلقاني حاكم إداري شاب بقوله : « ولكنك مسلم ، غير انك لا تعرف ذلك من نفسك » . لقد أثرت في هذه الكلمات ، غير اني بقيت صامتاً. ولكن لما عدت الى اوروبة مرة ثانية في عام ١٩٢٦ وجدت ان النتيجة المنطقية الوحيدة لميلي هذا ان اعتنق الاسلام .

*

هذا القدر من الاحوال التي لابست اعتناقي الاسلام يكفي في هذا المقام. ومنذ ذلك الحين وهذا السؤال يُلقى عليّ مرة بعد مرة:

لماذا اعتنقت الاسلام ، وما الذي جذبك منه خاصة؟ وهنا يجب ان اعترف بانني لا اعرف جواباً شافياً . لم يكن الذي جذبني تعليماً خاصاً من التعاليم ، بل ذلك البناء المجموع العجيب ، والمتراص بما لا نستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الاخلاقية بالاضافة الى منهاج الحياة العملية . **ولا استطيع اليوم ان اقول اي النواحي قد استهوتني اكثر من غيرها ، فان الاسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة وكل اجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً ويشد بعضها بعضاً. فليس هنالك شيء لا حاجة اليه ، وليس هنالك نقص في شيء ، فنتج من ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص . ولعل هذا الشعور من ان جميع ما في الاسلام من تعاليم وفرائض «قد وضعت مواضعها» هو الذي كان له اقوى الاثر في نفسي** ، وربما كانت مع هذا كله ايضاً مؤثرات اخرى يصعب عليّ الآن ان احللها . وبالايجاز فقد كان ذلك قضية من قضايا الحب ، والحب يتألف من اشياء كثيرة : من رغباتنا وتوحدنا ، ومن اهدافنا السامية وعثراتنا ، ومن قوتنا وضعفنا : وكذلك كان شأني . لقد هبط عليّ الاسلام كاللص الذي يهبط المنزل في جوف الليل ، ولكنه لا يشبه اللص لانه هبط عليّ ليبقى الى الابد .

ومنذ ذلك الحين سعيت الى ان اتعلم من الاسلام كل ما اقدر عليه : لقد درست القرآن الكريم وحديث الرسول عليه السلام ، لقد درست لغة الاسلام وتاريخ الاسلام وكثيراً مما كتب عنه او كتب في الرد عليه . وقد قضيت اكثر من خمس سنوات في الحجاز ونجد — واكثر ذلـــك في المدينة — ليطمئن قلبي بشيء من البيئة

الأصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة اليه فيها . وبما ان الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الاقطار فقد تمكنت من المقارنة بين اكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الاسلامي في ايامنا . **هذه الدراسات والمقارنات خلقت فيّ العقيدة الراسخة بان الاسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال ، بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين ، أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر . وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد .**

☆

وهذا الكتاب خطوة متواضعة نحو ذلك الهدف العظيم . وليست تبلغ به الدعوى الى ان يكون اجمالاً خالصاً للقضايا كلها لا أثر للعاطفة فيه . بلى ، انه بسطُ حالٍ كما تتراءى لي - وعرضٌ موجز لحال الاسلام في مجابهة المدنية الغربية . وهذا الكتاب لم يكتب لأولئك الذين ليس الاسلام لهم سوى عون من الاعوان - قلت فائدته او كثرت - على ولوج الحياة الاجتماعية [ أي الذين يتاجرون بالاسلام ] ، **ولكنه كتب على الاصح لاولئك الذين لا يزال يحيا في قلوبهم شرارة من ذلك اللهيب الذي كان يضطرم في قلوب صحابة رسول الله ، ذلك اللهيب الذي جعل الاسلام في ما مضى عظيماً بنظامه الاجتماعي ورقيه الثقافي .**

# سبيل الاسلام

•

ان افضل ما نصف به عصرنا الحاضر انه عصر امكن فيه «التغلب على المسافات» ، فان وسائل النقل تطورت الى ابعد ما حلمت به الاجيال الغابرة ، واثارت حركة نقل تجارية اوسع مدى واسرع مما عُرف في تاريخ الجنس البشري. ولقد كان من نتيجة هذا التطور ان اصبحت الشعوب يعتمد بعضها على بعض في الحياة الاقتصادية، فليس من شعب ولا من جماعة تستطيع اليوم ان تعيش بمعزل عن سائر العالم. ان الحركات الاقتصادية لم تبق محلية ، بل اكتسبت صفة عالمية واصبحت تتجاهل في اتجاهاتها الحدود السياسية والمساحات الجغرافية ، ثم اخذت تحمل معها ـ ولعل هذا اشد اهمية من الناحية المادية البحت لهذه المشكلة ـ الحاجة المتزايدة ، ليس الى نقل البضائع فحسب ، بل الى نقل الاراء والاتجاهات الفكرية الثقافية ايضاً. ولكن بينما تسير هاتان القوتان الاقتصادية والثقافية جنباً الى جنب ، تراهما مختلفتين في أسسها الفعالة. **ان المبادىء في علم الاقتصاد تتطلب ان تكون المقايضة بين الشعوب متبادلة ، وهذا يعني انه لا يمكن لشعب ما أن يتخذ دائماً صفة المشتري بينما يكون الآخر ابداً بائعاً . وفي اثناء هذا المدى الطويل يجب على كل منهما ان**

يقوم **بالدورين معاً على التوالي: يجب ان يأخذ وان يعطي** اما مباشرة او من طريق اولئك الذين يمثلون في رواية القوى الاقتصادية .

« ولقد ركب في طبيعة البشر ان الامم والمدنيات التي هي »
« أخصب من الناحية السياسية والاقتصادية ، تترك على الامم ، »
« التي هي اضعف منها في الحيوية ، روعة وتؤثر فيها من الناحية »
« الثقافية والاجتماعية من غير ان تتأثر هي نفسها . تلك هي الحال »
« اليوم فيما يتعلق بالصلات بين الغرب وبين العالم الاسلامي »

أما من وجهة نظر المؤرخ الناقد ، فان الاثر القوي ذا الاتجاه الواحد الذي يمليه التمدين الغربي على العالم الاسلامي ، لا يدعو الى الدهشة مطلقاً لانه نتيجة تطور تاريخي له أشباه كثيرة في أماكن أخر . ولكن بينما نجد المؤرخ يرضى بهذه النتيجة ، نجد نحن الاخرين ان المشكلة لا تزال حيث كانت . ونحن الذين لسنا نظارة متحمسين فحسب ، بل ممثلون حقيقيون في هذه المسرحية ، نحن الذين ننظر الى انفسنا على اننا اتباع النبي محمد ( ص ) نجد ان المشكلة تبدأ في الحقيقة من هنا . **اننا نعتقد ان الاسلام ، بخلاف سائر الاديان ، ليس اتجاه العقل اتجاهاً روحياً يمكن تقريبه من الاوضاع الثقافية المختلفة ، بل هو فلك ثقافي مستقل ونظام اجتماعي واضح الحدود. فاذا امتدت مدنية اجنبية بشعاعها الينا واحدثت تغييراً في جهازنا الثقافي — كما هي الحال اليوم — وجب علينا ان نتبين لانفسنا اذا كان هذا الاثر الاجنبي يجري في اتجاه امكانياتنا الثقافية او يعارضها، وما اذا كان يفعل في جسم الثقافة الاسلامية فعل المصل المجدد للقوى او فعل السم .**

اما الجواب عن هذا السؤال فلا يأتي الا عن طريق التحليل فقط . فعلينا ان نكتشف القوى المحركة في المدنيتين - في المدنية الاسلامية وفي مدنية الغرب الحديث - ثم نقوم بالبحث لنعرف الحد الذي يجب ان يذهب اليه التعاون بينهما . وبما ان الثقافة الاسلامية ثقافة دينية في أساسها فيجب ان نتبين الدور الذي يقوم به الدين في الحياة الانسانية .

✲

أن ما نسميه « الاتجاه الديني » في الانسان انما هو النتاج الطبيعي لاحواله العقلية والحيوية . ان الانسان لا يستطيع ان يكشف لنفسه غوامض الحياة ، ولا سر الولادة والموت ، ولا سر اللانهاية والابد ، فان تفكيره يصطدم بجدران لا تخترق . ولكن الانسان على كل حال يستطيع ان يعمل شيئين : اولهما انه يتحاشى كل محاولة لفهم الحياة بمجموعها ، وفي هذه الحال يعتمد الانسان على قرائن الاختبار الظاهرة وحدها ، ويحصر كل استنتاج في نطاقها . وهكذا يصبح قادراً على فهم نتف متفرقة من الحياة تزداد في عددها وفي وضوحها بسرعة او ببطء يتفقان مع ازدياد معرفة الانسان بعالم الطبيعة . ولكن هذا الفهم على كل حال يبقى نتفاً من مجموع تظل الاحاطة به وراء طاقة العقل البشري ... هذا هو السبيل الذي تسير فيه العلوم الطبيعية . اما الامكان الثاني - الذي يمكن ان يوجد بجانب الامكان العلمي - فهو سبيل الدين . انه يهدي الانسان في اكثر الاحيان من طريق الاختبار الوجداني او بالحدس لقبول تفسير الحياة تفسيراً شاملا مبنياً في اكثره على

الافتراض بان ثمت قوة مبدعة سامية تدبر هذا العالم على امر قد قُدِر ولكن الاحاطة به وراء طاقة الفهم البشري . وكما سبق لنا القول فقلنا انه لا يلزم من هذا الرأي ان يمتنع الانسان من البحث في حقائق الحياة واجزائها حينما تكشف هذه نفسها للنظر الظاهر ، اذ ليس ثمت عداوة اصيلة بين الرأي الظاهر ( العلمي ) وبين الرأي الوجداني ( الديني ) ، ولكن الثاني في الحقيقة هو الاحتمال الوحيد في النظر العقلي لادراك الحياة كلها على انها وحدة في جوهرها وفي قوتها المحركة ، وعلى انها مجموع متزن منسجم . وان التعبير « منسجم » — وهو الذي يساء استعماله كل الاساءة — امر مهم جداً في ما نحاوله ، لانه يقتضي اتجاهاً مصاقباً في الانسان . ان الرجل الديّن يعلم ان كل ما يصيبه او يحدثُ في نفسه لا يمكن ان يكون خبط عشواء لا وعي فيه ولا حكمة منه . هو يعتقد انه نتيجة لارادة الله الواعية وحدها ، وانه هو نفسه جزء حي من هذا المنهاج العالمي . وهكذا قدر للانسان أن يحل هذا الخلاف المرير بين « الذات » الانسانية وبين العالم الواقعي المتكون من الحقائق والمظاهر التي تسمى الطبيعة. ان الانسان بكل ما في نفسه من التركيب الالي المعقد ، وبكل رغباته ومخاوفه وشعوره وشكوكه التفكيرية ، يرى نفسه امام عالم طبيعي امتزجت رحمته وقسوته ، وخطره وامنه على اسلوب عجيب بعيد من ان نفسره ، وكأنه في ظاهره يعمل على اسس تناقض بناء التفكير البشري وتناقض اساليبه . ولم يتح قط للفلسفة العقلية المحض ولا للعلوم التجريبية ان تحل هذا التناقض . هنا يتدخل الدين .

وعلى ضوء النظر الديني والاختبار نجد ان « الذات » الانسانية العارفة والطبيعة الخرساء ، المسلوبة في ظاهرها من التبعة ، تجتمعان معاً في نسب من الانسجام الروحي ، فان الوعي الفردي في الانسان والطبيعة التي تحيط به وتملأه ايضاً ليسا ، وان اختلفا ، سوى مظهرين متكاملين للارادة المبدعة الواحدة بعينها . ان الخير العميم الذي يهبه الدين للانسان من هذا السبيل انما هو توكيد على ان الانسان ما زال ، ولن يزال ، جزءاً مقدراً في الحركة الابدية للخليقة . انه جزء محدود في نظام غير محدود في هذا الجهاز العالمي. ثم ان الاهمية النفسانية لهذا الادراك انما هي الشعور العميق بالسكينة ، انما هي ذلك التوازن بين الرجاء والخوف ، التوازن الذي يميز الديّن الحقيقي من الجاحد .

هذا الوضع الاساسي عام في الاديان الكبرى كلها مهما اختلفت اسماؤها ( في الاصل : Denomination ) وكذلك يعم فيها الحث على ان يسلم الانسان نفسه الى ارادة الله المتجلية . على ان الاسلام ، والاسلام وحده ، يتخطى هذا التعليل النظري والنصح. وهو لا يرشد الانسان فقط الى ان الحياة في اساسها وحدة فحسب ، لانها تنبثق من الوحدانية الالهية ، ولكنه يدلنا ايضاً الى الطريقة العملية التي يستطيع بها كل فرد ـ في نطاق حياته الدنيوية ـ ان يعيد وحدة الفكر والعمل في وجوده ووعيه كليهما . وللوصول الى هذا الهدف السامي في الحياة كان الانسان في الاسلام غير مجبر على ان يرفض الدنيا ، وليس ثمت حاجة الى تقشف يفتح به الانسان باباً سرياً الى التطهر الروحي . ذلك أمر غريب كل الغرابة عن

الاسلام ، فالاسلام ليس عقيدة صوفية ولا هو فلسفة ، ولكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه ، وما عمله الاسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الانسانية . وانك لترى هاتين الوجهتين في تعاليم الاسلام تتفقان في انهما لا تدعان تناقضاً أساسياً بين حياة الانسان الجسدية وحياته الادبية فحسب ، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً امر يؤكده الأسلام ، إذ يراه الاساس الطبيعي للحياة .

ذلك هو السبب ، على ما اظن ، لهذا الشكل في الصلاة الاسلامية حيث يمتزج الخشوع ببعض الحركات الجسمانية . ان بعض النقاد الذين شهروا عداوتهم على الاسلام يجعلون هذا النوع من الصلاة برهاناً على زعمهم بان الاسلام دين رسوم ومظاهر . وفي الحق ان اهل الاديان الاخرى ، اولئك الذين تعودوا أن يفصلوا تماماً بين الامور الروحية والامور الجسدية كما يفعل اللبان حينما يمخض الحليب ليستخرج زبدته ، لا يفهمون بسهولة ان في الحليب الصريح في الاسلام يجتمع هذان العنصران – مع انهما متميزان في اجزائهما – ويعيشان معاً متجانسين ، ويعبران عن نفسهما أوضح التعبير .

وهنالك مثل آخر ، لهذا الاتجاه ، في فريضة الطواف – أي السعي حول الكعبة في مكة . بما أن الطواف فرض عين على كل حاج الى هذا البلد المقدس ، وذلك بان يسعى سبع مرات حول الكعبة ، وبما ان هذا الفرض من أهم الاركان الاساسية الثلاثة في الحج الاسلامي ، فان لنا الحق في ان نتساءل فنقول : ما معنى هذا ؟ وهل من الضروري ان نعبر عن تقوانا بهذه الصورة الشكلية ؟

ان الجواب واضح تماماً: اذا نحن درنا حول شيء ما فاننا نقرر ان هذا الشيء انما هو النقطة المركزية لعملنا. ان الكعبة التي يولي كل مسلم وجهه شطرها في صلاته ترمز الى وحدانية الله، وان الطواف حولها يرمز الى جهود الحياة الانسانية. وهكذا نرى أن الطواف لا يعني ان افكارنا الخاشعة وحدها فقط، بل حياتنا العملية واعمالنا وجهودنا ايضاً، كل هذه يجب ان تتمثل في نفسها فكرة الله ووحدانيته على أنها مركز لها، كما قال القرآن الكريم: «وما خلقتُ الجن والانس إلا ليعبدون» (الذاريات ٥٦)

يختلف «ادراك» العبادة في الاسلام بما هو في كل دين آخر: ان العبادة في الاسلام ليست محصورة في اعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الانسان العملية ايضاً. واذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله فيلزمنا حينئذ ضرورةً ان ننظر الى هذه الحياة، في مجموع مظاهرها كلها، على انها تبعة أدبية متعددة النواحي. وهكذا يجب ان نأتي اعمالنا كلها، حتى تلك التي تظهر تافهة، على انها عبادات: أي نأتيها بوعي، وعلى انها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله. تلك حال ينظر اليها الرجل العادي على انها مثل اعلى بعيد، ولكن أليس من مقاصد الدين ان تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع؟

ان موقف الاسلام في هذا الصدد لا يحتمل التاويل. انه يعلمنا أولاً ان عبادة الله الدائمة، والمتمثلة في اعمال الحياة الانسانية المتعددة جميعها، هي معنى هذه الحياة نفسها، ويعلمنا ثانياً ان بلوغ

هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: حياتنا الروحية وحياتنا المادية . يجب ان تقترن هاتان الحياتان ، في وعينا وفي اعمالنا ، لتكون «كلا» واحداً متسقاً . ان فكرتنا عن وحدانية الله يجب ان تتجلى في سعيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا .

هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه ، هي **فرق آخر بين الاسلام وبين سائر النظم الدينية المعروفة . ذلك ان الاسلام – على أنه تعليم [1] – لا يكتفي بان يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط، ولكنه يعرض ايضاً – بمثل هذا التأكيد على الاقل – للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية . ان الحياة الدنيا لا يُنظر اليها على انها صدفة عادية فارغة ولا على انها طيف خيال للآخرة التي هي آتية لا ريب فيها من غير ان تكون منطوية على معنى ما ، ولكن على انها وحدة ايجابية تامة في نفسها . والله تعالى «وحدة» ، لا في جوهره فحسب ، بل في الغاية اليه ايضاً** . من اجل ذلك كان خلقه وحدة ، ربما في جوهره ، إلا انه وحدة في الغاية منه بكل تأكيد .

وعبادة الله في اوسع معانيها – كما شرحنا آنفاً – تؤلف في الاسلام معنى الحياة الانسانية . هذا الادراك وحده يرينا إمكان بلوغ الانسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية ، ومن بين سائر النظم الدينية نرى الاسلام وحده يعلن ان الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا . ان الاسلام لا يؤجل هذا الكمال الى ما بعد

(١) مبدأ يتقيد به الناس في حياتهم الروحية .

إماتة الشهوات « الجسدية » ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من تناسخ الارواح على مراتب متدرجة ، كما هي الحال في الهندوكية ، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بان الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم . كلا — ان الاسلام يؤكد في اعلانه ان الانسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية ، وذلك بان يستفيد استفادة تامة من وجوه الامكان الدنيوي في حياته هو .

وتجنباً لسوء التفاهم نرى ان نعرّف « الكمال » على ما سيرد هنا . اننا ما دمنا نعالج كائنات انسانية حية محدودة فاننا لا نستطيع النظر في فكرة الكمال « المطلق » ، اذ ان كل ما هو مطلق فانما يرجع الى عالم الصفات الالهية فقط . ان الكمال الانساني في معانيه النفسانية والخلقية الصحيحة يجب ان يكون بالضرورة ذا صلات نسبية وصلات فردية خالصة . انه لا يقضي بالتحلي بجميع الصفات الحميدة المتخيلة ، اي المثلى ، ولا بالاكتساب التدريجي لصفات جديدة من عالم الانسان الخارجي ايضاً ، وانما يقضي بتحسين تلك الصفات الايجابية التي سبق لها ان وجدت في الفرد ، وذلك كله بطريقة توقظ فيه قوى هو مفطور عليها ، ولكنها هي كامنة فيه . وبالنظر الى اختلاف مظاهر الحياة ، فان الصفات التي فطر عليها الانسان تختلف بين حال وحال . ومن المحال من اجل ذلك ان نظن ان جميع الناس يلزمهم — او انهم يستطيعون فيما لو حاولوا — ان يكدحوا الى « نوع » واحد من

الكمال – كما انه من المحال ان ينتظر من « النجيب [1] » الكامل ومن « البعير » الكامل ان يتصفا بصفات واحدة . وان كلاً منهما يمكن ان يكون تاماً مرضياً في جنسه ، ولكنهما يظلان مختلفين لان صفاتهما الاصلية مختلفة . وهكذا هي الحال في معالجة البشر . ولو جعل للكمال مقياس من « نوع » معلوم لاقتضى ان يتخلى الناس عن فروقهم الشخصية او ان يتبدلوا بها غيرها او ان يميتوها . ولكن هذا قد يفضي الى خرق القانون الالهي الذي يقوم على التفاوت بين الافراد والذي يسيطر على الحياة في هذا العالم . من اجل ذلك نرى الاسلام – وهو ليس بدين لقهر النفس – يترك للانسان مجالاً واسعاً في حياته الشخصية والاجتماعية كيما تستطيع تلك الصفات المختلفة من العواطف والميول النفسانية ان تجد سبيلها في التطور الايجابي المتفق مع استعدادها الذاتي . وهكذا فقد يكون المرء زاهداً ، او انه يتمتع الى اقصى حد بلذاته الحسية ، وهو بعد في دائرة الشرع ، وقد يكون مع هذا كله أعرابياً يطوف الصحراء غير مدخر طعاماً لغده ، او يكون تاجراً غنياً تحيط به بضاعته . وما دام الانسان خاضعاً لما يفرضه عليه الله باخلاص وتقى فانه بعد ذلك حر في ان يكيف حياته الشخصية على الشكل الذي توجهه اليه طبيعته . ان واجبه ان يستخرج من

---

(١) النجيب جمل الركوب وهو سريع ، والبعير جمل لحمل الاثقال وهو بطيء . ولقد ضرب المؤلف المثل بالفرس لان في اوروبة خيلا للسباق والركوب وخيلا لجر الاثقال . اما العرب فليس لديهم « خيل » لجر الاثقال ولكن عندهم بعران للحمل .

نفسه احسن ما فيها كما يشرّف هبة الحياة التي انعم الله عليه بها ، وكما يساعد اخوانه من بني آدم بما ملكت يداه من وسائل رقيه هو ، في جهودهم الروحية والاجتماعية والمادية . على ان شكل هذه الحياة الشخصية ليس بمجال مقيداً بقياس ما . ان المرء حر في تخير ما يشاء من وجوه الامكان المشروعة والتي لا حد لها تقف عنده .

إن اساس « حرية » الاختيار في الاسلام يقوم على الافتراض بان الاصل في طبيعة الانسان الخير . وعلى خلاف ما تقول به النصرانية من ان الانسان خلق خاطئاً ، وخلاف ما جاءت به التعاليم الهندوكية من ان الانسان كان في اول امره دنساً فهو من اجل ذلك محمول على ان يتخبط في سلسلة من التقمص نحو هدفه الاقصى من الكمال ، نرى تعاليم الاسلام تقرر ان الانسان خلق طاهراً ، وخلق تاماً كما قال القرآن الكريم [1] : « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم » . ولكن هذه الاية تستمر لتستتم : « ثم رددناه اسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ! » .

هذه الاية الكريمة لا تأتي فقط بالعقيدة القائلة بان الانسان في الاصل خيّر طاهر ، بل هي تتضمن ايضاً ان الجحود وترك الاعمال الصالحات يهدمان هذا الكمال الاصلي . ثم ان الانسان يستطيع أن يحتفظ بكماله الشخصي او يستعيده ، فيما لو فقده ، اذا ادرك بوعيه الكامل وحدانية الله تعالى ثم تقيد بشرائع الله . وعلى هذا فليس الشر - كما يرى الاسلام - اساسياً ابداً ولا اصيلا ايضاً ، ولكنه مما يكتسبه الانسان في اثناء حياته ، فهو اذن من اساءة التصرف

(١) سورة ٩٥ (التين) : ٤ ، ٥ .

بتلك الصفات الايجابية الغريزية التي وهبها الله كل انسان . هذه الصفات - كما سبق لنا القول في ذلك - تختلف بين الافراد ، ولكنها هي دائماً كاملة في نفسها ، وان تطورها الكامل لممكن في اثناء حياة الانسان الفردية على هذه الارض . اننا نسلم بان الحياة الاخرة - لما فيها من تغير الاحوال تماماً فيما يتعلق بالادراك والشعور - ستهبنا صفات وقوى جديدة تجعل استمرار تطور النفس الانسانية ممكناً ، ولكن هذا يتعلق بحياتنا الاخرة فقط . على اننا نستطيع كلنا في هذه الحياة الدنيا ايضاً ، كما تنص التعاليم الاسلامية ، ان نبلغ مبلغاً تاماً من الكمال ، وذلك اذا عملنا على رقي صفاتنا الايجابية الراهنة التي تتألف منها حياتنا الفردية .

ومن بين سائر الاديان نجد الاسلام وحده يتيح للانسان ان يتمتع بحياته الدنيا الى اقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة . وهذا يختلف كثيراً من وجهة النظر النصرانية . ان الانسان - حسب العقيدة النصرانية - يتعثر في الخطيئة الموروثة التي ارتكبها آدم وحواء ، وعلى هذا تُعتبر الحياة كلها - في نظر العقيدة على الاقل - وادياً مظلماً للاحزان . انها الميدان الذي تعترك فيه قوتان : الشر المتمثل في الشيطان والخير المتمثل في المسيح . ان الشيطان يحاول بواسطة التجارب الجسدية ان يسد طريق النفس الانسانية نحو النور الازلي : ان النفس ملك المسيح ولكن الجسد ملعب للمؤثرات الشيطانية . وقد يمكن التعبير عن ذلك بوجه آخر : ان عالم المادة شيطاني في اساسه ، بينما عالم الروح الهي خيّر . وان كل ما في الطبيعة الانسانية من المادة - اي

« الجسد » كما يؤثر اللاهوت النصراني ان يدعوه ـ فانما هو نتيجة مباشرة لزلة آدم حينما سمع نصيحة الامير الجهنمي للظلمة والمادة ، يعني ابليس . من اجل ذلك كان حتماً على الانسان عندهم اذا شاء النجاة ان يلفت قلبه عن عالم اللحم إلى هذا العالم الروحي المقبل ، حيث تُحل الخطيئة البشرية بتضحية المسيح ، اي بفداء المسيح .

اما في الاسلام فاننا لا نعلم شيئاً عن خطيئة اصلية موروثة ، من اجل ذلك ليس ثمة أيضاً غفران شامل للانسانية فيه . ان المغفرة والغضب [1] امران شخصيان . ان كل مسلم رهين بما كسب فهو يحمل في نفسه جميع وجوه الامكان للنجاة الروحية او للخيبة الروحية . ولقد قال القرآن الكريم في النفس الانسانية : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ( البقرة ٢٨٦ ) ، وقال في موضع آخر : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى [2] » .

ولكن كما ان الاسلام لا يشرك النصرانية في ما تنص عليه من الناحية المظلمة في الحياة فانه يعلمنا على كل حال ألا نعلق على الحياة اهمية مغالى فيها كالتي تقول بها المدنية الغربية الحاضرة . إن الغرب الحديث ـ بصرف النظر عن نصرانيته ـ يعبد الحياة بالطريقة نفسها التي يعبد بها النهم طعامه : انه يلتهمه ولكنه لا يحترمه . أما الاسلام فانه ينظر الى الحياة الدنيا بهدوء واحترام . انه لا يعبد الحياة ولكنه ينظر اليها على انها دار ممر في طريقنا الى وجود

(١) المغفرة ( او النجاة ) : الفوز يوم القيامة بدخول الجنة ، والغضب : قضاء الله على الانسان في الآخرة بالهلاك : بالذهاب الى جهنم .

(٢) سورة ٥٣ ( النجم ) : ٣٩

أسمى . ولكن بما « انها دار ممر » ، ودار ممر ضرورية ، فليس من حق الانسان ان يحتقر حياته الدنيا ولا ان يبخسها شيئاً من حقها. ان سفرنا في هذا العالم أمر ضروري وجزء ايجابي من سنة الله . من اجل ذلك كان لحياة الانسان قيمة عظمى ، ولكن يجب ألا ننسى انها قيمة الواسطة الى غاية فقط . ثم ليس هنالك مجـــال في الاسلام للتفاؤل المادي كما هو في الغرب الحديث الذي يقول «مملكتي في هذا العالم وحده » ، ولا لاحتقار الحياة الذي يجري على لسان النصرانية : « ان مملكتي ليست من هذا العالم » . ان الاسلام يتخير في ذلك طريقاً وسطاً : ولذلـــك يعلمنا القرآن الكريم ان ندعو فنقول : « ربنـــا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة [1] » . وهكذا نرى ان قدر هذا العالم ، وما فيه من متاع ، حق قدره لا يقف حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحية . ان النجاح المادي مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية في نفسه ، إذ ان الغاية من جميع نشاطنا العملي يجب ان تكون خُلقاً ثم احتفاظـــاً باحوال فردية واجتماعية كتلك التي يمكن ان تعمل على ترقية الفضائل الخلقية في البشر . وعلى هذا المبدأ ترى الاسلام يقود الانسان نحو الشعور بالتبعة الادبية في كل ما يعمل سواء أكان ذلك جليلاً ام ضئيلاً .. ان الاسلام لا يسمح بالتفريق بين المطالب الادبية والمطالب العملية في وجودنا هذا . ففي الاشياء كلها لنا خيار واحد هو الخيار بين الحق والباطل ، وليس ثمت من منزلة بين المنزلتين . وهكذا كان الاصرار في الاسلام ، على ان العمل عنصر لا غنى عنه في الفضائل

(١) سورة ٢ ( البقرة ) : ٢٠١

الخلقية شديداً . فعلى كل مسلم ان ينظر الى نفسه على انه مسؤول شخصياً عن نشر كل انواع السعادة حوله ، وان يسعى الى إقرار الحق وازهاق الباطل في كل زمان وفي كل ناحية . ونحن نجد مصداق ذلك في آية من القرآن الكريم : كنتم خير امة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» (آل عمران ١١٠).

هذا هو التبرير الادبي للنشاط الظالم ١ في الاسلام ، تبرير الفتوح الاسلامية الاولى او ما يسمونه بالتوسع الاستعماري . ان الاسلام « استعماري » اذا لم يكن بد من استعمال هذا التعبير . ولكن هذا النوع من الاستعمار لم يحث عليه حب السيطرة ، وليس فيه شيء من الانانية الاقتصادية او القومية ، ولا شيء آخر من الطمع في ان تزيد اسباب رفاهيتنا الخاصة على حساب شعب آخر ، ولم يقصد منه في يوم من الايام اكراه غير المؤمنين على الدخول في الاسلام . لقد قُصد به دائماً ما يقصد به اليوم من بناء اطار عالمي لاحسن ما يمكن من التطور الروحي للانسان . ان المعرفة بالفضائل ـ حسب تعاليم الاسلام ـ تفرض على الانسان من تلقاء نفسها تبعة العمل بالفضائل ، واما الفصل الافلاطوني ٢ بين الخير والشر من غير حث على زيادة الخير ومحو الشر فانه فسق عظيم في نفسه . ان الاخلاق في الاسلام تحيا وتموت مع المسعاة الانسانية للعمل على نصرتها في الارض .

---

(١) الظلم على ما ورد في الشعر الجاهلي معناه « البدء بالعدوان على من يضمر لك العدوان » قال زهير بن ابي سلمى : ومن لا يظلم الناس يظلم . وهذا معنى كثير الورود في الشعر القديم .

(٢) الفصل الافلاطوني ، اي التفريق النظري البعيد عن الواقع .

# روح الغرب

•

حاولنا في الفصل السابق أن نضع موجزاً للاسس الأدبية في الاسلام . ونحن ندرك بسهولة ان الحضارة الاسلامية أتم ما عرفه التاريخ من أشكال الدولة الالهية . فالاعتبار الديني ، او وجهة انظر الدينية ، يسود هنا كل شيء ويظهر في أساس كل شيء. ولو النا وازنا بين هذا الاتجاه وبين اتجاه الحضارة الغربية لعجبنا من هذا الاختلاف العظيم في استشرافها الامور .

لقد سيطر على الغرب الحديث في اوجه نشاطه وجهوده اعتبارات من الانتفاع العملي [المادي] ومن التوسع الفعال فقط. وقد كان هدفه الذاتي انما هو المعالجة والاكتشاف لكوامن الحياة من غير ان ينسب الى تلك الحياة حقيقةً ادبية ما في ذاتها . اما قضية معنى الحياة والغاية منه فقد فَقَدت منذ زمن بعيد ، في نظر الاوروبي الحديث ، جميع اهميتها العملية . واصبح المهم لديه قضية واحدة فقط هي تلك الاشكال التي تستطيع الحياة ان تتلبس بها سواء أكان بامكان الجنس البشري - كما هو اليوم - ان يتقدم نحو السيطرة النهائية على الطبيعة او لم يكن ذلك . ان الاوروبي الحديث يجيب على السؤال الاخير بالايجاب ، وها هنا موضع يتفق

فيه والاسلامَ ، فقد قال الله في القرآن الكريم عن آدم وذريته : « إني جاعل في الارض خليفة » ( البقرة ٣٠ ) ، وهذا يعني ان الانسان قد قدّر له ان يسود في الارض وان يترقى عليها . ولكن الفرق بين وجهة النظر الاسلامية ووجهة نظر الغربي انما هو في نوع الرقي الانساني . ان الغرب الحديث يعتقد بامكان تحسّن روحي مستمر للبشرية في مجموعها ، وذلك عن طريق الرقي العملي وتطور التفكير العلمي . أما وجهة النظر الاسلامية فهي على كل حال مناقضة لهذه النظرة الغربية الآلية . ان الاسلام يعتبر وجوه الامكان الروحي لمجموع البشر صفة كامنة : أي انه شيء قد وضع في بناء الطبيعة البشرية بما هي طبيعة . ان الاسلام لا يسلم أبداً - كما يفعل الغرب - بان الطبيعة ، في معناها اللافردي العام ، تخضع لعملية تبدل ارتقائي وتحسن كالذي يتفق للشجرة مثلاً في نموها : ذلك لأن اساس تلك الطبيعة ، أي النفس الانسانية ، ليس كمية حيوية عضوية فحسب . والخطأ الأساسي في التفكير الاوروبي الحديث ، حينما يعتبر التزيد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفاً للترقي الانساني الروحي والادبي ، كان ممكناً فقط بارتكاب خطأ اساسي آخر هو تطبيق القواعد الحيوية العضوية على حقائق غير حيوية . ذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها . اما من الناحية الثانية فان الاسلام المبني على اوجه من الادراك المطلق يعتبر وجود النفسْ حقيقة لا تقبل النقاش . **ومع ان الرقي المادي والرقي الروحي في الحقيقة لا يعارض احدهما الآخر ،**

كما يرى الاسلام ايضاً ، فانهما وجهان من الحياة الانسانية مختلفان تماماً ، وليس لاحدهما بالآخر علاقة ما ، لا سلباً ولا ايجابـــاً ، وقد يمكن أن يوجدا أو لا يوجدا معاً. وبينما نرى الاسلام يقبل بوضوح إمكان الرقي المـــادي للانسانية في مجموعها ، ذلك الرقي الخارجي ، ويحث على الرغبة فيه ، نجده ينكر بوضوح كالوضوح الاول إمكان تحسن الانسانية في مجموعها من طريق الرقي الاجماعي. ان العنصر الفعال في الرقي الروحي مقصور على كل انسان بمفرده ، وان الخط البياني الوحيد الممكن في التطور الروحي والادبي انما هو ممتد بين ولادة الفرد وبين موته . اننا لا نستطيع ان نتقدم نحو الكمال كمجموع ، بل على كل فرد ان يكدح الى هدفه الروحي في نفسه ، وعلى كل فرد ان يبدأ ذلك الكدح بنفسه من جديد . هذا الاستشراف الفردي نفسه لمصاير الانسان الروحية يتوازن ويتأكد من طريق غير مباشرة بذلك الادراك الاسلامي البين للبيئة الاجتماعية وللتعاون الاجتماعي معاً . وان من واجب البيئة الاجتماعية ان تنظم الحياة الخارجية على شكل يمكن الفرد من ان يجد فيه اقـــل عدد ممكن من الصعاب واكبر قدر من التشجيع في سبيل جهوده . وهذا سبب اهتمام القانون الاسلامي ، اي الشرع ، بالحياة الانسانية من ناحيتها الروحية وناحيتها المادية على السواء ، وفي وجهتيها الفردية والاجتماعية .

إن ادراكاً مثل هذا ، كما مر من قبل ، ممكن فقط على اساس اعتقاد ايجابي بوجود النفس الانسانية ، وبوجود هدف مطلق للحياة الانسانية. اما الاوروبي الحديث ـ بما انطوى عليه من جحود مهمل

لوجود النفس على انها حقيقة عملية – فلم يبق لهدف الحياة عنده اهمية عملية ما : لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار ، في الحياة ، وراءه ظهريـــاً .

ان الاتجاه الديني مبني دائماً على الاعتقاد بان هنالك قانونـــا ادبياً مطلقـاً شاملا ، واننا نحن البشر مجبرون على ان نخضع انفسنا لمقتضياته . **ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة الى خضوع ما إلا لمقتضيات اقتصادية او اجتماعية او قومية . ان معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ، ولكنه الرفاهية . وان فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها من طريق الرغبة في القوة ، وكلا هذين موروث عن المدنية الرومانية القديمة .**

إن ذكر المدنية الرومانية على انها – الى حد ما على الاقل – مسؤولة من ناحية القرابة عن المادية في اوروبة المعاصرة قد يكون له رنة استغراب في آذان اولئك الذين سمعوا الموازنات الكثيرة بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الاسلامية الاولى . فكيف يكون مثل هذا الفرق البارز بين الاراء الاساسية في الاسلام وبينها في الغرب الحديث ممكناً ، اذا كان المظهر السياسي في الماضي قريبا في تينك المدنيتين ؟ الجواب على ذلك بسيط : انهما لم تكونا متقاربتين . وان تلك الموازنة الشائعة والتي كثيراً ما يستشهد بها القوم ليست سوى واحدة من السخافات الكثيرة التي تغذى بها عقول الجيل الحاضر ، إذ ليس ثمت شيء ما مشترك بين الامبراطوريتين الاسلامية والرومانية ما عدا انهما امتدتا فوق اراض شاسعة وشعوب متباينـة . ولكن كلتا الامبراطوريتين

كانت في مـــدة بقائها خاضعة لقوى توجهها توجيهاً خاصاً ، وكان عليها ان تحقق اهدافاً تاريخية متباينة . ثم اننا نلاحظ من حيث نشوء الامبراطوريتين ايضاً فارقاً عظيما بين الامبراطوريـــة الاسلامية والامبراطورية الرومانية . لقـد اقتضى الامبراطورية الرومانية الف عام حتى نمت الى اتساعها الجغرافي الكامل وحتى بلغت نضجها السياسي ، بينما الامبراطورية الاسلامية بزغت ثم بلغت أشدها في مدة وجيزة تبلغ نحو ثمانين عاماً . وكذلك نجد ان انقراض الامبراطورية الرومانية ، الذي نتج نهائياً من هجرات الهون والقوط ، تمّ في قرن واحد ، وكان تاماً حتى انـــه لم يبق من تلك الامبراطورية سوى بضعـة معـالم من الادب والبنـــاء . والامبراطورية البيزنطية التي يظنها بعضهم عادة وارثة الامبراطورية الرومانية ، كانت وارثة لها بمعنى انها استمرت في الحكم على بعض الاراضي التي كانت يوماً ما جزءاً من الامبراطورية الرومانية . أما الامبراطورية الاسلامية المنطوية في الخلافة فقد خضعت ـ على خلاف ذلك ـ لبعض التبديل في حدودهـا ، ولاختـلاف الاسر الحاكمة الكثيرة المتعاقبة عليها في اثناء حياتها الطويلة ، ولكن بناءها ظل في أساسه واحداً . وأما ما يتعلق بالغزوات الخارجية على الامبراطورية الاسلامية حتى غزوة التتر ( المغول ) التي كانت أعنف من جميع ما خبرته الامبراطورية الرومانية ، فانها لم تستطع ان تهز شيئاً من النظام الاجتماعي ولا من الحياة السياسية المستمرة في امبراطورية الخلفاء ، مع انها بلا ريب قد ساعدت على الركود الاقتصادي والفكري في الاعصر التي تلت . وفي مقابل القرن

الواحد الذي كان كافياً لتقويض الامبراطورية الرومانية كانت الحاجة ماسة الى اكثر من الف ومائتي عام من الانحلال البطيء حتى يتم الانهيار السياسي نهائياً ، ذلك الانهيار الذي تمثل في الغاء الخلافة العثمانية ، والذي تبعته العلامات الاولى فقط للتفكك الذي نشهده اليوم في البناء الاجتماعي الاسلامي .

**هذا الأمر يحملنا على الاستنتاج بان القوة الباطنة والتماسك الاجتماعي في العالم الاسلامي كانا أرقى من كل شيء خبره العالم من طريق التنظيم الاجتماعي** ، حتى ان الحضارة الصينية التي انكشفت عن قوى مماثلة في المناعة طيلة قرون عديدة ، لا يمكن ان تتخذ هنا موضوعاً للمقارنة . ان الصين تقع على طرف قارة ، ولقد بقيت حتى نصف قرن مضى – أي الى نهضة اليابان الحديثة – وراء متناول كل دولة منافسة . وان حروب التتر في ايام جنكيز خان وخلفائه لم تكد تمس اطراف الامبراطورية الصينية . اما الامبراطورية الاسلامية فقد ترامت في ثلاث قارات وكانت في اثناء ذلك كله محاطة بدول معادية لها قوة عظيمة وفيها حيوية بالغة . ومنذ فجر التاريخ ، والشرق الادنى – كما ندعوه – ، هو البؤرة البركانية لقوى اجتماعية وفكرية متنازعة ، ولكن حصانة النظام الاجتماعي الاسلامي ظلت – الى عهد قريب على الاقل – منيعة .

**وليس لنا أن نبحث بعيداً عن تعليل لهذا المشهد الرائع : ان تعاليم القرآن الكريم الدينية خلقت هذا الاساس المتين ، وسنة رسول الله اصبحت إطاراً من الفولاذ حول ذلك البناء الاجتماعي العظيم .**

وأما الامبراطورية الرومانية فلم يكن لها مثل هذا العنصر الروحي

ليحفظ عليها كيانها، ومن اجل ذلك انهارت بسرعة.

ولكن لا يزال هنالك فارق آخر بين تينك الامبراطوريتين العظيمتين، **فبينما لم يكن في الامبراطورية الاسلامية قوم ممتازون وبينما خضعت القوة فيها لنشر فكرة اعتبرها حملة المشاعل فيها الحقيقة الدينية السامية، كانت الفكرة التي تقوم عليها الامبراطورية الرومانية الاجتياح بالقوة واستغلال الاقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده. وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنفهم سوءاً ولا في ظلمهم انحطاطاً. وان «العدل الروماني» الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم**[1] ومن البين أن اتجاهاً كهذا كان ممكناً فقط على اساس ادراك مادي خالص للحياة وللحضارة — «ادراك مادي هذبه على التأكيد ذوق فكري، ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية». ان الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين وان آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية: لقد كانت أشباحاً سُكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي، ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في امور الحياة الحقيقية، بل كان عليها ان تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت مثل ذلك ولكن لم يكن ينتظر منها ان تمنح البشر شرائع خلقية.

تلك كانت التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة. ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات اخر كثيرة في اثناء تطورها، ثم

---

(١) وهذا هو موقف الفرنسيين والانكليز والهولنديين وسواهم من الامم المستعمرة: انهم يستغلون ثروات البلاد التي يحكمونها ويستغلون جهود أهلها في سبيل الترفيه عن شعبهم هم فقط.

إنها بطبيعة الحال قد بدلت وحورت في ذلك الارث الثقافي الذي ورثته عن رومية في اكثر من ناحية واحدة. ولكن الحقيقة الباقية أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف الغربي للحياة والاخلاق يرجع الى المدنية الرومانية. وكما ان الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً بحتاً ولا دينياً – لا على الافتراض، بل على الحقيقة – فكذلك هو الجو في الغرب الحديث. ومن غير ان يكون لدى الاوروبي برهان على بطلان الدين المطلق، ومن غير أن يسلم بالحاجة الى مثل هذا البرهان، ترى التفكير الاوروبي الحديث – بينما هو يتسامح بالدين وأحياناً يؤكد انه عرف اجتماعي – يترك، على العموم، الاخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية. **ان المدنية الغربية لا تجحد الله البتة، ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي.** لقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكري في الانسان، أي من عجزه عن الاحاطة بمجموع الحياة. وهكذا يميل الاوروبي الحديث الى ان ينسب الأهمية العملية فقط الى تلك الافكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، او تلك التي ينتظر منها على الاقل ان تؤثر في صلات الانسان الاجتماعية بطريقة ملموسة. **وبما ان قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك، فان العقل الاوروبي يميل بداءة الى اسقاط «الله» من دائرة الاعتبارات العملية.**

وهنا يعرض سؤال: كيف يمكن لهذا الاتجاه ان يتفق وطريقة التفكير المسيحي؟ أليست النصرانية – المفروض فيها أن تكون الهيكل الروحي للمدنية الغربية – عقيدة مبنية على

الاخلاق المطلقة كما هي الحال في الاسلام ؟ لا شك في انها كذلك. ولكن حينئذ لا يمكن ان يُخطأ خطا افدح من ان نعتقد ان المدنية الغربية الحديثة نتاج النصرانية . ان الاسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب ان تُطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على انها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق ، ويمكن التعبير عنها كما يلي : بما اننا لا نعرف شيئاً معيناً - من طرق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب - لا عن أصل الحياة الانسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد - فان من الخير لنا ان نحصر قوانا في وجوه امكاننا المادي والفكري من غير ان نسمح لانفسنا بأن نتقيد بالاخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية . فلا ريب إذن في ان هذا الاتجاه ، الذي تتميز به المدنية الغربية الحديثة لا يجد قبولاً في التفكير الديني المسيحي كما لا يجد قبولاً في الاسلام او في كل دين آخر ، وذلك لانه لا ديني في جوهره . وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الغربية الحديثة الى النصرانية خطأ تاريخياً عظيماً . ان النصرانية ساهمت في جزء يسير جداً من الرقي العلمي المادي الذي فاق بـه الغرب ، في مدنيته الحاضرة ، كل ما سواه . وفي الحق ان ذلك النتاج قد برز من كفاح اوروبة المتطاول للكنيسة المسيحية ولاستشرافها للحياة .

لقد بقي الروح الاوروبي قروناً طوالاً يرزح تحت عبء نظام ديني يطوي في نفسه احتقار الحياة واحتقار الطبيعة ... ومن الجلي ان مثل هذا النظام لا يحث على نشاط الجهود المتعلقة بالمعارف الدنيوية ولا بتحسين أحوال الحياة على الارض . وفي الحقيقة ، ان الفكر

الاوروبي قـد اخضع زمانـاً طويلاً في سبيل ادراك سيء للوجود الانساني . ففي اثناء العصور الوسطى حينما كانت الكنيسة مقتدرة على كل شيء هنالك ، لم يكن لاوروبة نشاط ما في حقول البحث العلمي . حتى انها خسرت كل صلة حقيقية بالنتاج الفلسفي : اللاتيني والاغريقي — ذلك النتاج الذي سبق له ان انبثق من الثقافـة الاوروبية .

[ وخلاصة القول ان المدنية الاوروبية قائمـة في اساسها عـلى المدنية الرومانية الوثنية ، وهي لم تأخذ من النصرانية — الـتي اعتنقتها لاسباب سياسية قاهرة — سوى الطلاء الخارجي فحسب . ثم ان المدنية الاوروبية لا تزال في واقعها وثنية مـادية لا تؤمن بغير القوة . من اجل ذلك نرى فرقاً عظيماً بينها وبين الاسلام ، الذي بني عـلى الروح والاخلاق والمثل العليا ، تلك الاسس الـتي خلقت في الاسلام مناعة ذاتية جبارة . ولا ريب في ان هذه الحقيقة الثمينة قد انكشفت لغلادستون — وزير بريطانية الاول وأحـد موطدي اركان الامبراطورية في الشرق — حينما قال : « ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيـع اوروبة السيطرة على الشرق ولا ان تكون هي نفسها في امان » . ]

لقد ثار الفكر الاوروبي [ مراراً ] ، ولكن الكنيسة كانت تقهره مرة بعد اخرى . ان تاريخ العصور الوسطى مليء بهذا الكفاح المرير بين عبقرية اوروبة وبين روح الكنيسة .

[ ولم تكتف الكنيسة الرومانية في العصور الوسطى بان تهيء الجو المناسب للحروب الصليبية ، تلك الحروب الـتي كانت وصمـة

عار في جبين الانسانية ، بل شنت على العلوم والفنون التي كانت تشع يومذاك من الاندلس حرباً لا هوادة فيها ولا لين . ]

ان تحرير العقل الاوروبي من القيود العقلية التي فرضتها عليه الكنيسة المسيحية قد اتفق في اثناء النهضة التي كانت مدينة الى حد بعيد لذلك العامل الثقافي الذي كان العرب ينقلونه الى الغرب .

وكل ما كان خيراً في الثقافة الاغريقية القديمة ثم في العصر الهيلاني التالي ، فان العرب بعثوه في علومهم وزادوا فيه في القرون التي تلت تأسيس الامبراطورية الاسلامية الاولى . انا لا اقول إن تقبّل العرب والمسلمين لنتاج الفكر الهيلاني كان على وجه العموم فائدة لا شك فيها لهم — اذ انه لم يكن كذلك . ولكن مع كل العقبات التي يمكن ان تكون الثقافة الهيلانية قد خلقتها في سبيل تقدم المسلمين بالمعنى الاسلامي الصحيح ، فان تلك الثقافة نفسها كانت باعثاً قوياً عن طريق العرب انفسهم في سبيل نهضة اوروبة .

ان العصور الوسطى قد اتلفت القوى المنتجة في اوروبة : كانت العلوم في ركود ، وكانت الخرافات سائدة ، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة الى حد من الصعب علينا ان نتخيله اليوم . في ذلك الحين اخذ النفوذ الاسلامي في العالم — في باديء الامر ، بمغامرة الصليبيين الى الشرق ، وبالجامعات الاسلامية الزاهرة في اسبانية المسلمة في الغرب ، ثم بالصلات التجارية المتزايدة التي انشأتها جمهوريتا جنوة والبندقية — اخذ هذا النفوذ يقرع على الابواب الموصدة دون المدنية العربية . وأمام تلك الابصار المشدوهة ، ابصار العلماء والمفكرين الاوروبيين ، ظهرت مدنية جديدة — مدنية

مهذبة راقية خفاقة بالحياة ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت ثم اصبحت في اوروبة من قبل نسيا منسياً . **ولكن الذي صنعه العرب كان اكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة . لقد خلقوا لأنفسهم عالماً علمياً جديداً تام الجدة. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها ، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة الى الغرب. ولسنا نبالغ إذا قلنا ان العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يدشن في مدن اوروبة النصرانية ، ولكن في المراكز الاسلامية : في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة .**

ان اثر هذا النفوذ في اوروبة كان عظيماً . لقد بزغ ، مع اقتراب الحضارة الاسلامية ، نور عقلي في سماء الغرب ملأها بحياة جديدة وبتعطش الى الرقي . ولم يأت التاريخ الاوروبي باكثر من اعتراف عادل بقيمة الحضارة الاسلامية حينما سمى **عصر التجديد الذي نتج من الاحتكاك الحيوي بالثقافة الاسلامية** « عصر البعث » * فانه كان في الحقيقة ولادة لاوروبة ، ولم يكن اقل من ذلك [1] .

ان مجاري الشباب التي كانت تنبع في العالم الاسلامي مكنت خيرة العقول في اوروبة من ان تناضل بعزم جديد تلك السيطرة البعيدة التي كانت للكنيسة المسيحية . ولقد كان لهذا النضال في اول الامر مظهر خارجي تمثل في حركات الاصلاح الديني التي نبعت

---

* عصر النهضة Renaissance كما يقال في التاريخ الحديث .

(١) لا ريب في ان انصراف العرب في الاندلس – في العصور الوسطى – الى العلوم والفنون جعلهم الى حد ما يهملون الناحية العسكرية الحربية في حياتهم فشجع ذلك الكنيسة على تأليب الاوروبيين على العرب ، فكان ذلك سبباً من اسباب ضياع الاندلس .

في وقت واحد تقريباً في البلدان الاوروبية المختلفة ، والتي كانت الغاية منها تكييف طريقة التفكير المسيحي حسب مقتضيات الحياة الجديدة .

ولقد كانت تلك الحركات عاقلة حكيمة في السبل التي سلكتها. ولو انها لقيت نجاحاً روحياً حقيقياً لاستطاعت ان توجد توفيقاً بين العلم وبين التفكير الديني في اوروبة [1] ولكن النتائج السيئة التي خلفتها كنيسة العصور الوسطى كانت قد اصبحت ابعد اثراً من أن تُزال باصلاح ديني ،باصلاح ماعتم ان انقلب نزاعاً سياسياً بين اقوام ذوي اغراض دنيوية . وبينما كانت العقود والقرون تنقضي كانت السلطة الروحية للتفكير الديني المسيحي تضعف شيئاً فشيئاً . وفي القرن الثامن عشر ازيلت سيطرة الكنيسة تماماً بفعل الثورة الفرنسية في فرنسة نفسها ، ثم بآثار تلك الثورة في البلاد الاخرى .

وفي ذلك الحين ايضاً تراءى لنا كما لو ان مدنية روحية جديدة طليقة من استبداد الكنيسة في العصور الوسطى ، تتهيأ لها اسباب النمو في اوروبة . ولقد ظهر فعلا في اواخر القرن الثامن عشر ، واوائل القرن التاسع عشر للميلاد عـــدد من احسن الشخصيات الاوروبية وأقواها من الناحية الروحية في عالم الفلسفة والأدب والموسيقى ، ولكن هذا الادراك الديني الجديد ظل قاصراً على اشخاص قلائل . اما السواد الاعظم في اوروبة فلم يكن يستطيع

---

(١) يشير المؤلف هنا الى حركات الاصلاح الديني، ومن قادتها ويكليف في انكلترة وزونغلي في سويسرة ولوثر في المانية وكالفن في فرنسة . ومن هذه الحركات نشأت البروتستانتية .

ان يهتدي الى الاتجاه الديني الصحيح بسرعة ، بعد ان قضى ذلك الردح الطويل من الزمن سجيناً لعقائد دينية لا صلة لها بجهود الانسان الطبيعية ... ومن اجل ذلك رفض هذه العقائد ورفض معها الدين اجمع .

ثم ان بدء عصر الصناعة وضجيج التقدم المادي المدهش وجّها البشر نحو منافع جديدة ، وهكذا ساهم ذلك كله في إحداث الفراغ الديني الذي تلا ذلك العهد في اوروبة . في هذا الفراغ اتخذت المدنية الغربية اتجاهاً مؤسفاً – مؤسفاً من وجهة نظر اولئك الذين ينظرون الى الدين على انه اقوى الحقائق في الحياة الانسانية .

ولما تحرر العقل الاوروبي من عبوديته الاولى للكنيسة تخطى في القرنين التاسع عشر والعشرين تلك الحدود ووطد عزمه تدريجاً على العداء لكل شكل من اشكال السلطان الروحي على الانسان. ومن ثنايا هذا الخوف الباطن ، ولئلا تعود تلك القوى التي تدعي السلطان الروحي مرة ثانية الى التغلب ، اقامت اوروبة نفسها زعيما بكل ما هو ضد الدين مبدئياً وعملياً . لقد رجعت اوروبة الى ارثها الروماني .

[ وهنا اضيف على هذا الارث الروماني الوثني المادي عنصر مادي جديد واخذوا يعبدون المال كما عبد بنو اسرائيل العجل المسبوك الذي صنعه لهم هرون في غياب موسى من حلي نسائهم [1] .

---

(١) راجع التوراة سفر الخروج ، الاصحاح الثاني والثلاثين . ثم راجع ايضاً القرآن الكريم ، سورة البقرة (٢ : ٥١ ، ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣) وسورة النساء ( ٤ : ٥٢ ) وسورة الاعراف ( ٧ : ١٤٧ ، ١٥١ ) وسورة طه ( ٢٠ : ٨٨ ) .

وهكذا اصبح المال الها جديداً في الغرب يُعبـــد من دون الله ، وقامت في عواصم اوروبا اسواق المـال والبورصة مثل ريجنت ستريت في لندن ووول ستريت في نيويورك. ثم جعل كهان هذا الاله الجديد يستغلون الناس بكل سبيل ، يجمعون من شعوب الارض دريهماتهم القليلة ليخزنوها ملايين في صناديقهم الحديدية . ولما زاد شرههم الى المال اخذوا يثيرون الحروب بـين الامم ثم يبيعون المتحاربين كلهم سلاحاً لا يهمهم من مـات ولا يهمهم من قتل ولا من خربت ارضه ودياره ولا من جاع او عطش او عري او ظل جاهلا ، ما داموا هم يجمعون المال في صناديقهم ليزيدوا به نفوذهم السياسي والعسكري في العالم ثم ليستخدموا هذا النفوذ من جديد في سبيل قناطير جديدة من الاموال ، وهكذا دواليك ]

ولا لوم على امرىء يقول : ليس الذي مكن الغرب من ان يبلغ هذا الرقي الباهر تفوّق كامن في النصرانية ، وذلك لان هذا الرقي انما هو في الحقيقة اثر من آثـــار مقاومة القوى العقلية في اوروبة لكل مبدأ من مبادىء الكنيسة .

وليس هنا مجال التعمق في الصلات الخاصة بين النصرانية وبين المدنية الاوروبية الحاضرة . ولقد حاولت انا ان اعرض اثنين من الاسباب – ولعلها أهم الاسباب التي كانت بها تلك المدنية مناهضة للدين تمام المناهضة في مدركاتها وفي طرقها : ان احد هذه الاسباب وراثة اوروبية للمدنية الرومانية مع اتجاهها المادي التام فيما يتعلق بالحياة الانسانية وقيمتها الذاتية ، والثاني ثورة الطبيعة الانسانية على احتقار النصرانية للدنيا وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود

المشروعة في الانسان. وقد كانت هذه الثورة ظافرة تماماً ، ظافرة الى حد جعل الفرق النصرانية والكنائس المختلفة مرغمة على ان تلائم شيئاً فشيئاً بين بعض عقائدها وبين الاحوال الاجتماعية والعقلية المتبدلة في اوروبة، [بعد ان شعرت بخطر حقيقي يتهددها، ففضلت ان تتنازل عن بعض طقوسها وتتساهل في بعض مبادئها لئلا تخسر بعد ذلك كل شيء.] وهكذا بدلاً من ان تؤثر النصرانية في حياة اتباعها الاجتماعية وتبدل فيها — كما يقضي الواجب الديني الاول — فانها سكتت عما أقره العرف ، وكانت في نفسها ستاراً للمشروعات السياسية . ثم ان للنصرانية اليوم في نظر السواد الاعظم معنى شكلياً ٭ فقط ، كما كانت حال آلهة رومية ، تلك الالهة التي لم يكن يسمح لها ، ولا ينتظر منها ، ان يكون لها نفوذ حقيقي ما على المجتمع . ولا ريب في انه لا يزال في الغرب افراد عديدون يشعرون ويفكرون على اسلوب ديني ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم — ولكن هؤلاء شواذ فقط . ان الاوربي العادي ، سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً ، رأسمالياً ام بلشفياً ، صانعاً أم مفكراً — يعرف ديناً ايجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي ، اي الاعتقاد بان ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول التعبير الدارج « طليقة من ظلم الطبيعة » .

**إن هيا كل هذه الديانة انما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء،**

---

٭ يقصد المؤلف من حكمه هذا نصارى اوروبا (الناقل)

**واما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وابطال الطيران** . وان النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة ، وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على ان يفني بعضها بعضاً حيثما تتصادم مصالحها المتقابلة . اما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الاخلاقية في مسائل الفائدة العملية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي .

إننا نجد في التبدل الاساسي الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الان ، تلك الفلسفة الاخلاقية الجديدة المبنية على الانتفاع تبرز للعيان شيئاً فشيئاً . وكل الفضائل التي تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية — كالمقدرة الفنية [ العلمية التقنية ] والوطنية والشعور القومي — هي اليوم موضع للمديح ولرفع قيمتها فوق ما هو معقول ، بينما الفضائل التي ظلت تعتبر الى اليوم ، من جهة قيمتها الخلقية الخالصة كالحب الأبوي والعفاف ، تخسر من قيمتها بسرعة لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة . ان العصر الذي كان فيه الحرص على الروابط المتينة في الاسرة من اجل سير الجماعات والعشائر قد تبدل الان في الغرب الحديث بعصر من النظام الاجماعي أوسع مدى . والمجتمع الذي يكون في اساسه فنياً آلياً — إذ ينظم بسرعة متزايدة على اساس آلي" خالص — لا يكون سلوك الابن فيه نحو أبيه ذا قيمة اجتماعية كبرى ، ما دام امثال هؤلاء الافراد يتخالقون في حدود اللياقة العامة التي يفرضها المجتمع على صلات افراده . وبالتالي فان الوالد الاوروبي يفقد في كل يوم شيئاً من

سلطته على ابنه ، وكذا الابن يفقد من احترامه لابيه . ولقد اصبحت صلاتهما المتبادلة مغلوبة او — من اجل كل هدف عملي — مقضياً عليها، وذلك لافتراض مجتمع آلي يميل الى الغاء كل امتياز لفرد ما على آخر ، ثم — اذا اعتبرنا تطور هذه الفكرة منطقياً — الى الغاء الامتياز الناتج من القرابة في الاسرة . ان الصلة القديمة بين الاب وابنه تصبح مع الايام مهجورة .

والى جنب هذا يسير الانحلال التدريجي لما يسمونه « الآداب الجنسية القديمة » . ان العفاف والأحصان يصبحان مع الايام خبراً ماضياً في الغرب الحديث لأنهما مفروضان من طريق الخلق فحسب ، وليس للاعتبارات الخلقية اثر مباشر محسوس في رفاهية الشعب المادية . وهكذا نجد ان الفضائل الخلقية القديمة التي يؤيدها الدين اخذت تخلي [ في البيئة العربية والاسلامية ] مكانها بالتدريج للفضائل الغربية الجديدة التي تدعو الى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة . اما ضبط النفس ومراقبة الصلات الجنسية فانهما يفقدان من اهميتهما بسرعة ، وان الصلات الوحيدة الممكنة في المستقبل ستكون مستمدة — في احسن الاحوال — من اعتبارات في درس الجماعات الانسانية والتناسل .

ومن المفيد ان نلاحظ ان كلا هذين التبديلين — ذلك الذي يرجع الى صلات الاولاد بالوالدين وذلك الذي يرجع الى الصلات بين الجنسين — قد سير بهما الى نهايتهما المنتظرة في الروسية السوفياتية التى لا تمثل من الناحية الثقافية تطوراً مختلفاً في اساسه مما في سائر العالم الغربي . بل على العكس من ذلك ، يبدو لنا ان

هذه التجربة الشيوعية ليست شيئاً آخر سوى التناهي وسوء البدء لتحقيق تلك الميول في المدنية الغربية الحديثة ، تلك التي هي بـلا شك لا دينية والتي هي ، في هدفها الاقصى، لا دينية ايضاً . ويمكن ان يكون ذلك العداء الحاد بين الغرب الرأسمالي وبين البلشفة ، في اساسها ، راجعاً فقط الى اختلاف الخطى بـين تينك الحركتين المتوازيتين في جوهرهما وفي انطلاقهما نحـو هدفهما الاقصى . **وان تشابههما الباطني سيصبح بلا شك ابرز فابرز في المستقبل، ولكن منذ الآن يظهر ان الميل الاساسي في الرأسمالية الغربية وفي البلشفية كلتيهما انما هو التخلي عن شخصية الانسان الروحية وفضائله الخلقية للمقتضيات المادية في مجموع آلي يدعونه «المجتمع» حيث لا يكون الفرد إلا سناً في دولاب (١) .**

والنتيجة الوحيدة الممكنة هي ان مدنية من هـذا النوع انما هي سم زعاف لكل ثقافة مبنية على القيم الدينية . وسؤالنا الصحيح عما اذا كان من الممكن ان نكيف اسلوب التفكير والحياة في الاسلام حسب مقتضيات المدنية الغربية ، يجب ان يجـاب عليه بالنفي . إن اول اهداف الاسلام واهمها انما هو الرقي الداخلي ، وهكذا تتغلب الاعتبارات الخلقية على اعتبارات الانتفاع الخالص. اما في المدنية الغربية الحديثة فالامر معكوس تماماً . ان اعتبارات الانتفاع المادي تسود جميع مظاهر النشاط الانساني ، اما الاخلاق فتنفى الى زاوية مظلمة من الحياة ثم يحكم لها بوجود نظري خالص

---

(١) اي فرداً يسيره المجموع العظيم كما ان اسنان الدولاب تسير في الاتجاه الذي يسير فيه الدولاب نفسه فقط . ( الناقل )

من غير ان يكون لها قوة مؤثرة في المجتمع . ان الوجود نفسه في مثل هذه الاحوال رياء ، وهكذا تجد ان ذوي النبل العقلي بين المفكرين الاوروبيين المعاصرين معذورون بالاضافة الى انفسهم ، اذا كانوا في اثناء تكرار النظر الى المصاير الاجتماعية في المدنية الغربية يتحاشون الاشارة الى الاخلاق المطلقة . اما الذين هم اقل نبلا منهم – اي أولئك الذين هم اقل وضوحاً في اتجاههم الخلقي – ففكرة الاخلاق المطلقة لا تزال باقية عندهم على انها عنصر أصمّ في التفكير ، اشبه بما يضطر الرياضي الى العمل به من الاعداد الصم التي لا تمثل في نفسها شيئاً محسوساً ولكنها ( هذه العناصر ) على كل حال اشياء مرغوب فيها لسد اماكن الفراغ في الخيال ، تلك الاماكن التي اقتضتها قيود البناء للعقل الانساني .

ان مثل هذا الموقف المذبذب من الاخلاق لا يتفق بكل تاكيد مع الاتجاه الديني ، ومن اجل ذلك كانت اسس المدنية الغربية الحديثة لا توافق الاسلام . **على ان هذا يجب ألا يحول ابدا دون امكان اخذ المسلمين من الغرب بعض البواعث في ميدان العلوم المجردة والعلوم التجريبية ، ولكن صلاتهم الثقافية يجب ان تبدأ عند هذا الحد وتنتهي عنده ايضاً . اما ان يخطو المسلمون الى ابعد من ذلك او ان يقلدوا المدنية الغربية في روحها واسلوب حياتها وفي تنظيمها الاجتماعي فهو المستحيل، إلا اذا سُددت ضربة قاضية الى الاسلام كدولة إلهية وكدين عملي .**

# شبح الحروب الصليبية

•

هنالك، بالأضافة الى فقدان التجانس الروحي، سبب آخر يحمل المسلمين على ألاّ يقلدوا المدنية الغربية : إنه التجارب التاريخية التي اصطبغت صباغاً شديداً بعداوة غريبة للاسلام .

وهذا ايضاً ، الى حدما ، إرث اوروبة من اليونان والرومان.

**ان اليونانيين والرومانيين نظروا الى انفسهم على انهم هم وحدهم المتمدينون .أما كل من كان اجنبياً عنهم ، وعلى الأخص اولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط ، فقد كان اليونانيون والرومانيون يُطلقون عليهم لفظ « البرابرة » . ومنذ ذلك الحين والاوروبيون يعتقدون ان تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع . ثم ان احتقارهم الى حد بعيد او قريب لكل مـــا ليس اوروبياً من اجناس الناس وشعوبهم قد اصبح احدى الميزات البارزة في المدنية الغربية .**

على ان هذا وحده لا يكفي لاظهار ما يكنه الاوروبيون نحو الاسلام خاصة . وهنا ، وهنا فقط ( نعني فيما يتعلق بالاسلام ) لا تجد موقف الاوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هـي الحال في موقفه من سائر الاديان والثقافات : بل هو كره عميق

الجذور يقوم في الاكثر على صدود من التعصب الشديد . وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ ايضاً بصبغة عاطفية قوية . قد لا تتقبل اوروبة تعاليم الفلسفة البوذية او الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير . إلا انها حالما تتجه إلى الاسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب . حتى إن ابرز المستشرقين الاوروبيين جعلوا من انفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الاسلام . ويظهر في جميع بحوثهم على الاكثر كما لو ان الأسلام لا يمكن ان يعالج على انه موضوع بحث في البحث العلمي ، بل على انه متهم يقف امام قضاته . ان بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصياً باجرام موكله لا يستطيع اكثر من ان يطلب له مع شيء من الفتور « اعتبار الاسباب المخففة » . وعلى الجملة فان طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها اكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التي انشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى ، اي ان تلك الطريقة لم يتفق لها ابداً ان نظرت في القرائن التاريخية بتجرد ، **ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون ان يصلوا اليه مبدئياً** واذا تعذر عليهم الاختيار العرفي للشهود ، عمدوا الى اقتطاع اقسام من الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها من

المتن ، او تأولوا الشهادات بروح غير علمي من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما الى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر ، أي من قبل المسلمين انفسهم .

وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهـــة للاسلام وللامور الاسلامية تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقو اوروبة . وليس ذلك قاصراً على بلد دون اخر . إنك تجده في انكلـــترة والمانية ، في الروسية وفرنسة ، وفي ايطالية وهولندة — وبكلمة واحدة ، في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بابصارهم نحو الاسلام . ويظهر انهـم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة ـ حقيقية او خيالية ـ ينالون بها من الاسلام عن طريق النقد . وبما أن هؤلاء المستشرقين ليسوا سلالة خاصة ، ولكنهم طلائع مدنيتهم وطلائع بيئتهم الاجتماعية ، فاننا من أجل ذلك يجب أن نصل ضرورةً الى أن نستنتج انّ في العقل الاوروبي على العموم — لسبب ما — ميلاً عن الاسلام بما هو دين وبما هو ثقافة . إن سبباً واحداً لذلك يمكن ان يُعزى الى الارث الذي قسم العالم يومذاك « اوروبيين » و « برابرة » . وأما السبب الآخر وهو أشد صلةً مباشرة بالاسلام ، فيمكننا أن نتبعه اذا وَلّينا أبصارنا شطر الماضي ، وخصوصاً الى تاريخ العصور الوسطى .

إن الاصطدام العنيف الاول بين اوروبة المتحدة من جانب وبين الاسلام من الجانب الآخر ، أي الحروب الصليبية ، يتفق مع بزوغ فجر المدنية الاوروبية . في ذلك الحين اخذت هذه المدنية ـ وكانت لا تزال على اتصال بالكنيسة ـ تشقّ سبيلها الخاص بعد تلك القرون

المظلمة التي تَبِعتْ انحلال رومية . حينذاك بدأت آداب اوروبة ربيعاً منوّراً جديداً . وكانت الفنون الجميلة قد بدأت بالاستيقاظ ببطء من سباتٍ خلفته هجرات الغزو التي قام بها القوط والهون والافاريون . ولقد استطاعت اوروبة ان تتملص من تلك الاحوال الخشنة في أوائل القرون الوسطى ، ثم اكتسبت وعياً ثقافياً جديداً ، وعن طريق ذلك الوعي كَسبَتْ ايضاً حساً مُرْهفاً . ولما كانت اوروبة في وسط هذا المأزقِ الحرج ، حملتها الحروب الصليبية على ذلك اللقاء العدائي بالعالم الاسلامي . لقد كان ثمت حروب بين المسلمين والاوروبيين قبل عصر الحروب الصليبية : كانت فتوح العرب في صقلية والاندلس ، وكان هجومهم على جنوب فرنسة . ولكن هذه المعارك كانت قبل أن تستيقظ اوروبة الى وعيها الثقافي الجديد ، فاتسمت من أجل ذلك ، ومن وجهة النظر الاوروبية على الاقل ، بطابع ذي نتائج محلية ، ولم تكن تلك المعارك قد فُهمت بعد على وجهها الحقيقي. إن الحروب الصليبية هي التي عينت في المقام الاول والمقام الأهمّ موقف اوروبة من الاسلام لبضعة قرون تتلو. ولقد كانت الحروب الصليبية في ذلك حاسمة لانها حدثت في اثناء طفولة اوروبة ، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تَعْرض نفسها ، وكانت لا تزال في طور تشكلها. والشعوب كالافراد ، اذا اعتبرنا ان المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية . وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً ، حتى انه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة والمتّسم بالتفكير اكثر من اتسامه

بالعاطفة ان تمحوها إلا بصعوبة، ثم يندر أن تزول آثارها تمامـــاً. وهكذا كان شأن الحروب الصليبية، فانهـا أحدثت أثراً من أعمق الآثار وأبقاها في نفسية الشعب الاوروبي. وان الحمية الجـــاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن ان تقارن بشيء خبرته اوروبة من قبل، ولا اتفق لها من بعد. لقد اجتاحت القارة الاوروبية كلها موجة من النشوة، كانت -في مدة ما على الاقل- عنفواناً تخطى الحدود التي بين البلدان والتي بين الشعوب والتي بين الطبقات. ولقد اتفق في ذلك الحين، وللمرة الاولى في التاريخ، أن اوروبة أدركت في نفسها وحدة - ولكنها وحدة في وجه العالم الاسلامي. ويمكننا أن نقول من غير أن نوغل في المبالغة إن اوروبة وُلدت من روح الحروب الصليبية. لقد كان ثمت قبل ذلك الزمن انكلو سكسون وجرمان وفرنسيون ونورمان وإيطاليون ودنمار كيون [ وسلاف ]، ولكن في اثناء الحروب الصليبية وُلدت فكرة « المدنية الغربية » وأصبحت هدفاً واحداً تسعى اليه جميع الشعوب الاوروبية على السواء. وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للاسلام وقفت عرّابا * في هذه الولادة الجديدة.

ومن حقائق التاريخ أن أول عمل للوعي الاجماعي -كما يقال- وذلك هو الدستور الثقافي للعالم الغربي، كان يستند الى دافـــع تعضُدُه الكنيسة النصرانية بلا قيد ولا استثناء، بينما جمـع انواع الانتاج التي تلت في الغرب كانت ممكنةً فقط بعد ثورة فكرية على كل ما أيدته الكنيسة أو تؤيده. إن ذلك تطور فاجع من وجهة

* تعبير كنسي يقصد به وكيل الطفل المعمد.

نظر الكنيسة النصرانية ومن وجهة نظر الاسلام كلتيهما. هو فاجع للكنيسة لأنها فقدت بعد تلك البداءة المدهشة سلطتها على العقل الاوروبي، وهو فاجع للاسلام لان الاسلام اضطر الى ان يحتمل نار الحروب الصليبية في أشكال كثيرة وتحت أقنعة متعددة سنين متطاولة فيما بعد.

إن الفظائع المروعة التي اقترفها الفرسان الصليبيون الاتقياء، وان التخريب والانحطاط اللذين خلفوهما في بلاد الاسلام التي اجتاحوها ثم خسروها، كل هذه هي التي أنبتت البذور السامة لعداوة طويلة الامد ولصلات متحرجة بين الشرق والغرب. ولولا ذلك لما كان ثمت ضرورة الى مثل هذا الشعور. ثم لو ان الحضارتين الاسلامية والغربية كانتا، كما نعتقد، مختلفتين تماماً في أسسهما الروحية ونظامهما الاجتماعي لوجب ان تكونا قادرتين على التسامح فيما بينهما والعيش جنباً الى جنب على اتصال ودي. ولقد كان في الجانب الاسلامي دائماً رغبة مخلصة للتسامح المتكافيء وللاحترام. وحينما أرسل الخليفة هرون الرشيد رسله الى الامبراطور شارلمان كانت هذه الرغبة هي التي تحدو به الى ذلك، ولم يكن ذلك منه مجرّد رغبة في الاستفادة المادية من صداقة الفرنجة. أما اوروبة فكانت في ذلك الحين، من الناحية الثقافية، فطرية الى حد انها لم تقدر هذه الفرصة حق قدرها، وان كانت لم تُبدِ لها كرها. واخيراً ظهر الصليبيون فجأةً عند الافق وقطعوا هذه الصلات بين الأسلام وبين الغرب. ولم يكن ذلك لأن الصليبيين راموا الحرب، فان حروباً كثيرة كانت قد نشبت بين الشعوب ثم نشبت

فيما بعد في مدى التاريخ الانساني ، وكم من عداوة انقلبت بعد ذلك صداقة . إلا ان الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ،ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً . لقد نشأ تسميم العقل الاوروبي عما شوهه قادة الاوروبيين من تعاليم الاسلام ومُثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب . في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الاوروبيين من ان الاسلام دين شهوانية وعُنفٍ حيوانيٍ ،وانه تمسكٌ بفروض شكلية وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها ،ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . وفي ذلك الحين ايضاً نُبِزَ الرسول « محمد » بقولهم « كلبي » ! *

لقد بُذِرَتْ بذورُ البغضاء . ان حميّة الصليبيين الجاهلية كان لها ذيولها في اماكن كثيرة من اوروبة فشجع ذلك نصارى الاندلس على الحرب لانقاذ بلادهم من « نير الوثنيين ». وأما تدمير اسبانية المسلمة ( الاندلس ) فقد اقتضى قروناً كثيرة حتى تم . ولما تطاول امد هذا القتال على وجه الحصر اخذ الشعور ضد الاسلام في اوروبة يُنشب جذوره ثم يثبت . ولقد انتهى باستئصال شأفة العهد الاسلامي في اسبانية بعد اضطهاد بالغ في الوحشية والقسوة مما لم يشهده العالم قط ، وان كانت اصداء الفرح قد تجاوبت في اوروبة على اثر ذلك ، مع العلم بان النتائج التي تلت كانت القضاء

---

* كلبي — Mahound وازن بين صورة Mahomed وصورة Mahound ان Ma ما : ضمير الملك للمتكلم ( ضمير جر ) و Hound هاوند من هوند Hund الجرمانية بمعنى الكلب . وقد كان اولئك النابزون يتلاعبون بظاهر اللفظتين : ماهومد وما هوند .

على العلوم والثقافة والتبدلَ بها جهلَ العصور الوسطى وخشونتها .

ولكن قبل ان يتاح لصدى هذه الحوادث ان يخفت في اسبانية حَدَث حدثٌ ثالث عظيم الأهمية زاد في فساد الصلات بين العالم الغربي وبين الاسلام : ذلك هو سقوط القسطنطينية في يد الاتراك . لقد كانت اوروبة ترى بقيةً من الزهو اليوناني والروماني القديم على بيزنطيوم ( القسطنطينية ) ، وكانت تنظر اليها على انها حصن اوروبة ضد « برابرة » آسية . وبسقوط القسطنطينية فُتح باب اوروبة على مصراعيه للسيل الاسلامي . وفي القرون التي تلت والتي امتلأت بالحروب لم تبق عداوة اوروبة للاسلام قضيةً ذات أهمية ثقافية فحسب ، بل ذات اهمية سياسية ، ايضاً . وهذا زاد في اشتداد تلك العداوة .

ومع هذا كله فان أوروبة قد استفادت كثيراً من هذا النزاع . ان « النهضة » أو إحياء الفنون والعلوم الاوروبية باستمدادها الواسع من المصادر الاسلامية والعربية على الاخص ، كانت تُعزى في الاكثر الى الاتصال المادي بين الشرق والغرب . لقد استفادت اوروبة اكثر مما استفاد العالم الاسلامي ولكنها لم تعترف بهذا الجميل وذلك بان تَنْقُصَ [1] من بغضائها للاسلام ، بل كان الأمر على العكس فان تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ثم استحالت عادةً . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة « مسلم » ، ولقد دخلت في الامثال السائرة عندهم

---

( ١ ) نقص ، ينقص فعل لازم وفعل متعد ايضاً ، وقد استعمل هنا على انه فعل متعد .

حتى نزلت في قلب كل اوروبي رجلاً كان ام امرأة . واغرب من هذا كله انها ظلت حية بعد جميع ادوار التبدل الثقافي . ثم جاء عهد الاصلاح الديني حينما انقسمت اوروبة شِيَعاً ، ووقفت كل شيعة مدجّجة بسلاحها في وجه كل شيعة اخرى ، ولكن العداء للأسلام كان عاماً فيها كلها . بعدئذ جاء زمنٌ أخذ الشعور الديني فيه يخبو ولكن العداء للاسلام استمر .

**وان من ابرز الحقائق على ذلك ان الفيلسوف والشاعر الفرنسي فولتير ، وهو من ألد اعداء النصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر ، كان في الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للاسلام ولرسول الاسلام .**

وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الاجنبية ويواجهونها بشيء من العطف ، أما فيما يتعلق بالاسلام فان الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول الى بحوثهم العلمية . وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين اوروبة والعالم الاسلامي غير معقود فوقه بجسر . ثم اصبح احتقار الاسلام جزءاً أساسياً من التفكير الاوروبي . والواقع ان المستشرقين الاولين في الاعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الاسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الاسلام وتاريخه مدبرة على اساس يضمن التأثير في موقف الاوروبيين من «الوثنيين» . غير ان هذا الالتواء العقلي قد استمر مع ان علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذا عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها . اما

تحامل المستشرقين على الاسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية ، بكل ما لها من ذيول ، في عقول الاوروبيين الأولين.

ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق ان نفوراً قديماً مثل هذا — وقد كان دينياً في اساسه وممكناً في زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية — يستمر في اوروبـــة في زمن ليس الشعور الديني فيه إلا قضية من قضايا الماضي ؟

ليست مثل هذه المعضلات موضع استغراب ابداً ، فـانه من المشهور في علم النفس ان الانسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التي تلقنها في اثناء طفولته، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة — والتي كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة — في قوتها تتحدى كل تعليل عقلي في جميع ادوار ذلك الانسان ، وهذه حال الاوروبيين مع الاسلام . فعلى الرغم من ان الشعور الديني الذي كان السبب في النفور من الاسلام قد اخلى مكانه في هذه الاثناء لاستشراف على الحياة أكثر مادية ، فان النفور القديم نفسه قـــد بقي عنصراً من الوعي الباطني في عقول الاوروبيين . واما درجة هذا النفور من القوة فانها تختلف بـــلا شك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لا ريب فيه . إن روح الحروب الصليبية — في شكل مصغر على كل حال — ما زال يتسكع فوق أوروبة ، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الاسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال .

☆

نحن نسمع في المجالس الاسلامية احيانـــاً تأكيداً مفاده ان عداوة اوروبا للاسلام – تلك العداوة التي نشأت من المنازعات العنيفة في الماضي – قد اخذت تزول شيئاً فشيئاً في ايامنا . حتى إنهم ليزعمون ان اوروبة تبدي دلائل هذا الميل الى الاسلام بما هو تعاليم دينية واجتماعية . وكثيرون من المسلمين يعتقدون ان هــذا الانقلاب الاجماعي في اوروبة اصبح قريباً . هذا الاعتقاد لا يبدو غير معقول لنا نحن الذين نعتقد ان الاسلام وحده من بـين جميع النظم الدينية يستطيع ان يثبت ويفوز في وجه الانتقاد الذي لا تحزب فيه . ولقد اخبر الرسول فوق ذلك ان الاسلام سيُقْبَل نهائياً على انه الدين العام للانسانية جمعاء . ولكن ليس ثمة – من جهة ثانية – قرينة ما تدل على ان هذا يمكن ان يتفق في المستقبل القريب . اما فيما يتعلق بالمدنية الغربية فان هذا ممكن ان يتفق بعد سلسلة من الانقلابات الاجتماعية والعقلية مما يزعزع الغرور الثقافي الحاضر في اوروبة ويبدل العقلية فيها في كل شيء حتى تستطيع ان تكون مستعدة لأن تتقبل تعليلاً للحياة دينياً . ان العالم الغربي اليوم لا يزال تائهاً تمـــاماً في اجلال الانتاج الماضي وفي الاعتقاد ان الرفاهية ، والرفاهية وحدهـا ، انمـا هي الهدف الذي يستحق ان يكدح الانسان اليه . ان مادية الغرب وجحوده للتوجيه الديني في التفكير يزيدان كل يوم قوة ولا ينقصان كما يظن بعض المتتبعين لهذه القضية من المسلمين المتفائلين . [ اما خير وسيلة يجب ان يلجأ اليها المسلمون حتى يحملوا العالم الغربي عــلى احترامهم فهي ان يكونوا اقوياء ] .

لقد قيل إن العلم الحديث بدأ يعترف بوجود قوة واحدة مبدعة وراء هيكل الطبيعة المنظور، وهذا – كما يزعم هؤلاء المتفائلون – بدء فجرٍ لوعي ديني جديد في العالم الغربي. ولكن هذا الزعم ينكشف فقط عن سوء فهم المسلمين المتفائلين للتفكير العلمي الاوروبي. ليس ثمت من عالم رصين يستطيع، أو استطاع من قبل، أن ينكر الترجيح بان العالم يرجع في أصله إلى علة فعالة رئيسية. ولكن القضية على كل حال هي اليوم، كما كانت دائماً من قبل، متعلقة بالصفات التي ننسبها الى تلك العلة. ان جميع النظم الدينية المطلقة تؤكد ان ثمت قوة ذات وعي وادراك مطلقين، وهي قوة تبدع هذا العالم وتقضي فيه امرها حسب ناموس ما ومقصدٍ ما من غير ان تكون هي نفسُها مقيدةً بقوانين، او بكلمة واحدة: هذه القوة هي الله. إلا ان العلم الحديث – على ما هو عليه اليوم – ليس مستعداً ولا ميالاً الى ان يخطو الى مثل هذا الحد (وفي الواقع إن هذا خارج عن نطاق العلم)، بل هو يترك قضية الوعي والاستقلال – أو بكلمة أخرى: يترك الالوهية – في تلك القوة المبدعة خاضعةً للاخذ والرد. ثم ان موقفه من ذلك شيء مثل هذا: «يمكن ان يكون كذلك، ولكني انا لا اعلم وليس لديّ وسيلة علمية لأن اعلم». وقد تتطور هذه الفلسفة في المستقبل الى نوع من اللاأدرية الشمولية حيث تتحد النفس بالمادة والغاية بالوجود والخالق بالمخلوق، وإنه لمن الصعب ان ننظر إلى هذا الاعتقاد على انه خطوة نحو «فكرة الله» الايجابية في الاسلام. انها هنا ليست فراقاً للمادة، ولكنها رَفعٌ لها الى مستوى فكريٍ اسمى

واصفى فحسب .

وفي الواقع ، إن اوروبة لم تكن يوماً ما أبعد عن الاسلام منها اليوم . ان عداوتها الناشطة نحو ديننا يمكن ان تكون الآن آخذةً بالمَيَلان ، وهذا على كل حال لا يرجع الى قَدْرها التعاليم الاسلامية حقّ قدرها ولكنه يرجع الى الضعف الثقافي المتزايد والى التفكك في العالم الاسلامي. ولقد كانت اوروبة مرة على وجل من الاسلام ، فحملها وَجَلُها منه على ان تتخذ موقفاً عدائياً من كل شيء مصطبغ بالصِبغة الاسلامية حتى ما كان يتعلق بالامور الروحية والاجتماعية الخالصة. ولكن لما خسر الاسلام اكثر اهميته كعامل مناهض للمصالح الاوروبية ، كان من الطبيعي لاوروبة ، مع تناقص وجلها من الاسلام ، ان تفقد شيئاً من الشدة الاصلية لشعورها العدائي نحوه . واذا كان هذا الشعور العدائي قد اصبح أقل بروزاً واقل نشاطاً ، فان هذا لا يسمح لنا ان نقفز الى الاستنتاج بان الغرب قد اقترب ضمناً من الاسلام ، إن هذا يدل على قلة اكتراثه به .

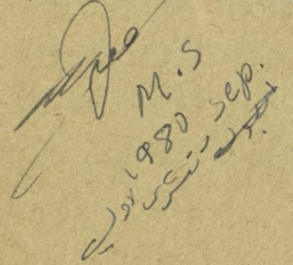
ان المدنية الغربية لم تبدل اتجاهها العقلي نحو الاسلام ، وإنها اليوم شديدة المناهضة للفكرة الدينية في الحياة كما كانت دائماً من قبل . ولقد ذُكِرَ آنفاً انه ليس ثمة قرينة مقنعة تدل على ان هذا التبدل يمكن ان يتفق في المستقبل القريب . ان وجود بعض الدعاة المسلمين في الغرب ، وإن اعتناق بعض الاوروبيين والاميركيين للاسلام ( من غير ان يفهموا في اكثر الاحيان تعاليمه تماماً ) ليس حجة على الاطلاق، اذ انه في العهد الذي تنتصر

فيه المادية في كل مكان يبـدو من الطبيعي ان بعض الافراد هنا وهناك ، من أولئك الذين لا يزالون يتوقون الى التجدد الروحي، يُصْغون بشوق الى كل عقيدة بنيت على الفكرة الدينيـة . ومن هذه الناحية ، لا نجد الدعوة الاسلامية وحيـدة في الغرب ، فان هنالك شيعاً نصرانية صوفية لا يحصيها العـــد ، لها ميول نحو الاحياء الديني ، وهنالك حركة إشراقية على شيء من القـــوة ، وهنالك هياكل وارساليات بوذية ، وهنالك أتباع بوذيون في المدن الاوروبية المختلفة. فالحجة نفسها إذن، التي يحتجّ بها الدعاة المسلمون، تصلح ان يحتج بها الدعاة البوذيون ليقولوا ان اوروبة تقترب من البوذية. ففي كلتا الحالين نجد هذا التأكيد مضحكاً. ثم ان دخول افراد قلائل في البوذية او في الاسلام لا يدل قطعاً على ان احدى العقيدتين قد بدأت تؤثر في الحياة الغربية على نطاق واسع . وقـد يستطيع احدنا ان يذهب الى ابعد من هذا فيقول إنه ما من دعوة من هاتين الدعوتين استطاعت ان تثير إلا فضولا ضئيلا يرجع في الأكثر الى الروعة التي تستولي بها العقائد الأجنبية على عقول اناس ذوي ميول خيالية . ومن المؤكد ان ثمـــة شواذ ، وان بعض المهتدين يمكن ان يكونوا من الساعين المخلصين نحو الحقيقة ، إلا ان ما يشذ ليس كافياً لأن يبدل وجه المدنية . اما من الناحية الثانية، فأننا اذا قُيّضَ لنا ان نوازن بين ذلك وبين عديد الاوروبيين الذين ينضمون كل يوم الى صفوف المذاهب الاجتماعية المادية كالماركسية والفاشية ، استطعنا ان نعرف تماماً ميل المدنية الغربية الحديثة .

ومن الممكن ، كما ذكرنا آنفاً ، ان الاضطراب الاجتماعي

والاقتصادي ، وان نشوب حرب عالمية جديدة لم يعرف الناس من قبلُ مثل اتساعها ولا مثل فظائعها بما ستقوم عليه من استخدام العلم ، كل ذلك قد يقود الغرور المادي عند اهل المدنية الغربية في طريق مخوف الى المحال . وحينئذ سيرجع العقل الاوروبي مرة ثانية الى السعي بذلة واخلاص وراء الحقيقة الروحية . وحينئذ يمكن ان تنجح الدعوة الى الاسلام في الغرب ، ولكن مثل هذا التبدل لا يزال محجوبا وراء أفق المستقبل . من أجل ذلك قد يقع المسلمون في تفاؤل خطر خداع فيما لو قالوا بان النفوذ الاسلامي هو الآن في طريقه الى التغلب على روح اوروبة . ان مثل هذا الاعتقاد ليس في الحقيقة سوى الاعتقاد القديم بظهور المهدي ، ولكن وراء قناع يتراءى فيه العقل . ان هذا الاعتقاد خطر لأنه طيب في النفس سهل عليها ، ولأنه يحاول ان يخدعنا عن أن نرى الحقيقة ، تلك اننا لسنا من الثقافة على شيء ، بينما النفوذ الغربي هو اليوم على أتم قوته في العالم الاسلامي . ثم اننا نحن نيام بينما ذلك النفوذ الغربي يزلزل المجتمع الاسلامي ويقوضه في كل مكان . فالرغبة اذن في انتشار الاسلام شيء ، وبناء الأماني الكاذبة على هذه الرغبة شيء آخر .

اننا نحلم بنور الاسلام ينتشر على البلاد المترامية ، بينما الشباب المسلم في جوارنا القريب يقعدون عن قضيتنا ويفرون عن آمالنا .



# في التربية

•

**ما دام المسلمون مصرين على النظر الى المدنية الغربية على انها القوة الوحيدة لاحياء الحضارة الاسلامية الراكدة ، فأنهم يُدخلون الضعف على ثقتهم بانفسهم ، ويدعمون بطريقة غير مباشرة ذلك الزعم الغربي القائل بان الاسلام « جهد ضائع » .**

لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الاسباب المؤيدة للرأي القائل بان الاسلام والمدنية الغربية — وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً — لايمكن ان يتفقا. فاذا كان ذلك كذلك، فكيف نستطيع ان نتوقع ان تظل تنشئة احداث المسلمين على اسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الاوروبية وعلى مقتضياتها ، خالصةً من شوائب النفوذ المعادي للاسلام ؟

ليس ثمت ما يبرر توقعنا لذلك . واننا اذا استثنينا بعض الاحوال النادرة التي يتاح فيها لعقل نيّر للغاية ان يتغلب على مادة التعليم ، **فان التنشئة الغربية لاحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة ارادتهم في ان يعتقدوا أو أن ينظروا الى انفسهم على انهم هم ممثلو الحضارة الالهية الخاصة التي جاء بها الاسلام . وليس ثمت من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين**

« المتنورين » الذين نشأوا على اسس غربية . وهـذا بكل تأكيد ، لا يعني ان الاسلام قد احتفظ بوحدته كدين عملي بـين الطبقات غير المثقفة ، ولكننا نجد هنا تلبية أبعد في مداها العاطفي لداعي الاسلام - على الطريقة الفطرية الـتي يدركها اصحاب هذه الطبقات اشد مما نجده عند « المتنورين » المصطبغين بالصبغة الغربية . اما تعليل هذا التباعد فليس لان العلوم الغربية التي عُلفوا بها قـد جاءت بدليل معقول على فساد حقيقة التعاليم الدينية ، بل لان ذلك الجو الفكري في المدنية الغربية الحديثة يناهض الدين الى حد من الشدة حتى انه ليجعل من نفسه عبئاً فادحاً عـلى القوى الدينية الكامنة في ابناء الجيل الاسلامي الحاضر .

ان الايمان والالحاد هما في النادر فقط موضوع جدال فحسب ، اذ قد يصار احياناً الى احدهما او إلى الآخر من طريق الحدْس او من طريق النظر في الامور كما يقال . على انهما في اغلب الاحيان ينتقلان الى الانسان من بيئته الثقافية . تخيّلْ طفلاً قد رُبّي منذ ايامه الاولى تربية منظمة على سماع الحان موسيقية تامة الاداء ؛ إن هذا الطفل يشبّ واذنه متعودة تمييز الانغام والايقاع والانسجام. واذا لم يُصبح هذا الطفل في مقتبل حياته قادراً عـلى التأليف الموسيقي والاداء فانه على الاقل يصبح قادراً على فهم اعقد انواع الموسيقى . ولكن طفلاً لم يُتح له في حياته الاولى ان يسمع شيئا يشبه الموسيقى قد يتعذر عليه في مقتبل حياته ان يدرك بسائطها . وكذلك الحال في الجماعات الدينية . فكما ان هنالك افراداً ضنت عليهم الطبيعة باذنٍ موسيقية أبـداً ، فان هنالك أيضاً - على وجه

الامكان لا على وجه التحقيق – أفراداً في آذانهم وَقْرٌ عن سماع صوت الدين . إلاان الذي يتعلق بالعديد الاكبر من البشر العاديين أن الايمان والجحود (عندهم) يفصل فيهما الجو الذي نشأوا فيه . من اجل ذلك قال الرسول : « ما من مولود إلا يُولد على الفطرة، فابواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه » . ان التعبير « ابواه » يمكن منطقياً ان يتناول البيئة العامة التي تحكم في تطور الطفل. **وليس لأحد ان يتردد في الاعتراف** – والحالة الحاضرة على ما هي من الانحطاط – **بان الجو الديني في كثير من بيوت المسلمين قد بلغ من التدني والانحلال الفكري حداً اخذ يثير في الاحداث الناشئين عوامل الاغراء الاولى لأن يُوَلّوا الدين ظهورهم . وهذا يمكن على التحقيق أن يكون كذلك ، أما في حال تعليم ناشئة المسلمين على أسس غربية فان التأثير سيكون على الارجح موقفاً عدائياً من دينهم .**

ثم يبدو لنا هذا السؤال المهم : ماذا يجب ان يكون موقفنا من العلم الحديث ؟ إن الاحتجاج على تعليم المسلمين تعليماً غربياً لا يعني أبداً أن الاسلام يعارض التعليم في ذاته . وليس لهذا الزعم الذي يزعمه خصومنا مستند لاهوتي ولا مستند ديني . ان القرآن الكريم مملوء بمثل هذه الآيات الكريمة : « لَعَلَّكُم تَعْقِلُون ، لَعَلَكُم تَتَفَكرونَ ، لَعَلكُمْ تَعلمُونَ ، وقُل ربِّ زدني علماً » . ولقد جاء في اوائل القرآن الكريم قوله تعالى : « وعَلّم آدَمَ الاسماءَ » [1] ثم أرانا في بعض الآيات الكريمة التي تلت ،

---

(١) : سورة ٢ (البقرة) : ٣١ .

كيف ان الانسان بعد علم هذه «الاسماء» اصبح في بعض النواحي ارقى من الملائكة انفسهم . هذه «الاسماء» تعبير رمزي للمقدرة على تحديد المصطلحات وعلى قوة التفكير المنطقي الذي خُص به البشر ، والذي يمكنهم به كما قال القرآن الكريم أن يكونوا خليفة الله على الارض . ولكن لكي يستطيع الانسان ان يستفيد فائدة منظمة من تفكيره يجب عليه ان يتعلم ، ولذلك قال الرسول «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقا الى الجنة» [1] وقال : «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» [2] .

وليس من الضروري ان نستشهد بآيات القرآن الكريم او باحاديث الرسول للدفاع عن موقف الاسلام من العلم . إن التاريخ يبرهن وراء كل امكان للريب أنه ما من دين ابداً حث على التقدم العلمي كما حث عليه الاسلام . وان التشجيع الذي لقيه العلم والبحث العلمي من الدين الاسلامي انتهى الى ذلك الانتاج الثقافي الباهر في ايام الامويين والعباسيين وايام دولة العرب في الاندلس. وإن اوروبة لتعرف ذلك حق المعرفة لأن ثقافتها هي نفسها مدينة للاسلام بتلك النهضة على الاقل بعد قرون من الظلام الدامس . نحن لا نقول ذلك اعجاباً منا بتلك الذكريات المجيدة في زمن هجر العالم الاسلامي فيه تقاليده الخاصة وانقلب الى العماية والى الفقر الفكري ، إذ لا يُحَقّ لنا في بؤسنا الحاضر أن نفتخر

(١) و (٢) : مسند احمد بن حنبل ، وجامع الترمذي ، وسنن ابي داود وابن ماجه والدارمي .

بالامجاد الماضية .

**ولكن يجب ان يتضح لدينا ان اهمال المسلمين ، وليس النقص في التعاليم الاسلامية ، هو الذي سبَّب الانحلال الحاضر .**

**إِن الاسلام لم يقف يوماً ما سدّاً في وجه التقدّم والعلم. إِنه يَقدِر الجهود الفكرية في الانسان الى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة.** وما من دين ذهب أبعد من الاسلام في تأكيد غلَبة العقل وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة . واذا نحن عملنا باركان هذا الدين فاننا لا نستطيع ان نهجر التعليم الحديث في حياتنا . إِننا نرغب في ان نتعلم وان َنتقدّم وان نصبح من الناحية العلميـــة والاقتصادية اكفاء كالشعوب الغربية. **ولكنّ الشيء الوحيد الذي لا يستطيع المسلمون ان يتمنوه هو ان ينظروا بعيون غربية ويَرَوُا الآراء الغربية : إِنهم لا يستطيعون ان يتمنوا ـ اذا ارادوا ان يظلوا مسلمين ـ ان يتبدّلوا بحضارة الاسلام الروحية تجارب مادية من اوروبة .**

**المعرفة نفسها ليست غربية ولا شرقية**،انها عامة بالمعنى الذي يجعل الحقائق الطبيعية عامة . الا ان وجهة النظر التي ُترى منها هذه الحقائق و ُتعرض تختلف باختلاف المزاج الثقافي في الشعوب. إِنّ علم الحياة ، بما هو علم الحياة ، والعلم الطبيعي وعلم النبات ، بما هما كذلك ، ليست كلها مادية ولا روحية في ما تقصد اليه . انها تتعلق بملاحظة الحقائق وبجمعها وتحديدها ثم استخراج القواعد المعقولة منها . اما النتائج الاستقرائية التي نستخرجها من هذه العلوم المتعلقـــة بالمظاهر العامة في الحياة ، اي فلسفة العلوم ، فانها لا تنبني عـــلى

الحقائق والمشاهدة فقط ولكنها تتأثر الى حد بعيد جداً بمزاجنا المتأصل فينا او بموقفنا الحَدْسي من الحياة ومشاكلها . ويقول الفيلسوف الالماني الكبير كَنْتْ : « قد يبدو من المستغرب – ولكنه اكيد على كل حال – ان عقلنا لا يستنبط نتائجه من الطبيعة ولكنه يعزوها اليها » . إن وجهة النظر الذاتية وحدها هي التي تؤثر هنا وتبدّل مظهر الاشياء . وكذلك العلوم ليست في ذاتها مادية ولا روحية ولكنها يمكن ان تنقلب الى هذا المظهر او ذاك حسب استعدادنا العقلي الخاص . إن الغرب ، بصرف النظر عن عقليته المثقفة الى درجة قصوى ، ذو استعداد مادي ، وهو من اجل ذلك مناهض للدين في مُدْركاته وفي افتراضاته الاساسية . وكذلك نظام التربية الغربية على وجه العموم . وليست دراسة العلوم الحديثة التجريبية هي المضرة بالحقيقة الثقافية في الاسلام ، وانما المضر هو روح المدنية الغربية التي يقترب المسلم بها الى تلك العلوم .

ومن سوء حظنا الشديد ان ما اتصفنا به من قلة المبالاة ومن الاهمال ، فيما يتعلق بالبحوث العلمية ، جعلنا نعتمد ابداً على الوجهة الاوروبية في عرض العلم . ولو اننا كنا دائماً نتبع المبدأ الاسلامي الذي يوجب طلب العلم على كل مسلم ومسلمة لما كنا اليوم نتطلع في طلب العلم الى اوروبة كما يتطلع الذي يقتله الظمأ في الصحراء الى السراب المتلألىء عند الافق . ولكن بما ان المسلمين اهملوا زمناً طويلاً فانهم غرقوا في الجهل وفي الفقر المادي بينما استطاعت اوروبة ان تخطو خطوة جبارة الى الامام . وسوف نحتاج الى وقت طويل حتى نتلافى هذا النقص . وحتى ذلك الحين فاننا سنظل مضطرين

بطبيعة الحال الى ان نتناول العلوم الحديثة عن طريق المجـــاري التعليمية في اوروبة . وهذا معناه اننا مقيدون بمادة العلم وباسلوبه ليس إلا . وبكلمة اخرى يجب علينا ألا نتردد في درس العـــلوم الرياضية الطبيعية حسب الاسس الغربية ، ولكن يجب ألا نتنازل للفلسفة الغربية عن اي دور من ادوار تنشئة أحداث المسلمين. ولا ريب في ان بعضهم قـد يستطيع ان يقول ان كثيراً من العلوم الرياضية الطبيعية في الوقت الحاضر كالطبيعيات الذرية مثلاً ، قـد بلغ حداً ابعد من البحث التجريبي الخالص ، وعلى ذلك يجب ان نتعدى بدراستنا الى حقل الفلسفة . ثم انه من الصعب في كثير من الاحوال ان نجد حداً فاصلاً بين العلم التجريبي وبين الفلسفة النظرية. ذلك حق ولكن ، من الناحية الثانية ، تلك هي النقطة التي يجب على الثقافة الاسلاميـة ان تثبت نفوذها عندها . وسيكون من واجب العلماء المسلمين ومن الفرص السانحة لهم ايضاً، اذا وصلوا الى حدود البحث العلمي ، ان يستخدموا نظرهم العقلي مستقلين فيـــه عن النظريات الفلسفية الغربية ، وانهم من طريق اتجاههم العقلي الخاص - الاسلامي - قد يصلون على الارجح الى نتائج في المعقولات تختلف بعض الاختلاف من تلك التي وصل اليها العلماء الغربيون المحدثون .

ولكن مهما كان ذلك الذي سينكشف عنه المستقبل **فان من الممكن دائماً ان ندرس العـــلوم وان ندرسها من ان نخضع خضوعاً يسترقنا للاتجاه العقلي في الغرب. ان ما يحتاج اليه العالم الاسلامي اليوم ضربة لازم ليس استشرافاً فلسفياً جـــديداً**

**ولكن تجهيز علمي فني عصري.** ولو طُلب اليّ ان اقترح شيئا على لجنة تعليمية مثلى تسيرها الاعتبارات الاسلامية وحدها لحثثت على ان تختار من جميع النتاج العقلي في الغرب العلومَ الطبيعية (مع الاحتفاظ بالموقف الآنف الذكر) والرياضيات، فنعلمها في المدارس الاسلامية. **اما تعليم الفلسفة الاوروبية والادب الاوروبي والتاريخ العام كما تُرى (هذه كلها) من وجهة نظر الغرب، فيجب ان يفقد المرتبة الفضلى في برامج التعليم.** ان الموقف من الفلسفة الاوروبية يجب ان يكون واضحاً منذ البداية. اما الادب فيجب علينا بكل تأكيد ألا نحرّم دراسته، وانما يجب ان تُرَدّ دراسته الى حدود قيمتها الحقيقية، اي اللغوية، فالطريقة التي تجري عليها معالجة الادب الأوروبي وتدريسه في البلاد الاسلامية تدور — ونقول ذلك صراحة — مع الهوى. ان الاغراق الذي لا حد له في قدر قيمته يحمل العقول الناشئة الغضة بطبيعة الحال على ان تتشرب روح المدنية الغربية بثقة عمياء واندفاع كبير قبل ان يتاح لها ان تعرف النواحي السلبية فيها معرفة كافية. وهكذا لاتكون الطريق معبدة لحب ذلك الادب حباً عذرياً فقط. ولكن لتساعد على التقليد العملي لتلك المدنية الغربية التي لا يمكن ان تتفق مع روح الاسلام. ان الدور الحاضر الذي يقوم به الادب الاوروبي في المدارس الاسلامية يجب ان نتبدّل به تدريساً عاقلاً بصيراً للأدب الاسلامي يتأثر منه الطالب بسعة الثقافة الاسلامية وغناها، وهكذا يشيع في نفسه امل جديد بحسن مستقبلها.

**إِن تعليم الأدب الاوروبي على الشكل الذي يسود اليوم**

الكثير من المؤسسات الاسلامية يقود الى جعل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة. ومثل هذا – ولكن الى حد أبعد – يصدق على التعليل الاوروبي للتاريخ العام، إذ لا يزال الموقف القديم فيه: «روما نيون وبرابرة» يظهر بجلاء. ثم ان لمثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً، ذلك ان يدلل على ان الشعوب الغربية ومدنيتها ارقى من كل شيء جاء او يمكن ان يجيء الى هذا العالم. وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الادبي لسعي الاوروبيين الى السيطرة والى القوة المادية. لقد تعوّد الاوروبيون منذ ايام الرومانيين ان ينظروا الى الفروق بين الشرق والغرب نظراً مبنياً على «قياس» اوروبي مزعوم. ثم ان براهينهم تقوم على الزعم ايضاً بان تطور العالم لا يمكن ان يُنظر اليه الا على اساس التجارب الثقافية الاوروبية. ان مثل هذا النظر القصير ينتج بالضرورة ظلاً مشوهاً، وكلما امتد خط النظر عن الامر الذي ينظر فيه الاوروبيون زادت الصعوبة عليهم في أن يدركوا المظهر الحقيقي والبناء التاريخي لذلك الامر الذي يعالجونه.

من اجل هذا الاغترار كان تاريخ الاوروبيين الوصفي للعالم – حتى الآن على الاقل – ليس في الحقيقة الا تاريخاً مفصلاً للغرب. ولم يُحسب لغير الشعوب الاوروبية حساب الا اذا كان لوجودهم وتقدمهم تأثير مباشر في مصير اوروبة. ولكنك اذا رسمت للشعوب الاوروبية تاريخاً شديد التفصيل زاهي الالوان ولم تسمح الا بنظرات خاطفة هنا وهناك تمر بها على الاقسام الباقية في العالم، فان القارىء يميل الى الاستسلام للتوهم بان عظمة ما بلغ اليه

الاوروبيون في النواحي الاجتماعية والعقلية لا يمكن أن يقاس بها شيء مما حدث في العالم اجمع. وهكذا يظهر تقريباً كما لو ان العالم قد اوجِد من اجل اوروبة ومن اجل مدنيتها فقط، وكما لو ان سائر الشعوب والمدنيات قد خُلقت لتكون حواشي تناسب بهاء اوروبة وحدها. اما التأثير الوحيد الذي يمكن ان يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحـداث من غير الشعوب الاوروبية فانما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصـة وبماضيهم التاريخي الخاص وبالفرص السانحة لهم في المستقبل. وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم اللهم الا إذا كان مستقبلاً مستسلماً للمثل العليا الغربية.

وكيما نتمكن من مقاومة هذه المؤثرات السيئة يتحتم عـلى العقلاء من قادة الفكر الاسلامي ان يعملوا جهـدهم لتعديل تعليم التاريخ في المؤسسات الاسلامية. تلك بلا ريب مهمة شاقة، انها تحتاج الى تمحيص اساسي للبحوث التاريخية قبل ان يصبح من المتيسر كتابة تاريخ جديد للعالم من وجهة النظر الاسلامية. ولكن اذا كانت هذه المهمة صعبة فانها على كل حال ممكنة، وهي فوق ذلك واجبة. والا فان جيلنا الحديث سيستمرّ على التأثر بهذه التيارات الخفية التي تحمل اليه احتقار الاسلام، وستكون النتيجـة شعوراً بالنقص يتزايد يوماً بعد يوم. على ان هذا الشعور بالنقص يمكن بعد زمن ما ان يُقضى عليه اذا كان المسلمون مستعدين لأن يتألفوا المدنية الغربية جملة واحدة وان ينفوا الاسلام من حياتهم. ولكن هل هم مستعدون لأن يفعلوا ذلك؟

نحن نعتقد ، والتطور الحديث في الغرب يثبت هذا الاعتقاد ايضاً ، بان الاخلاق في الاسلام وخصوصاً في ادراكها للسلوك الاجتماعي والشخصي وللعدل والحرية ، انما هي اكثر سمواً واحسن كمالا من المدنية الغربية .

لقد أبطل الاسلام العصبية العرقية « الحقد الجنسي » وشق الطريق الى الاخاء الانساني والى المساواة . ولكن المدنية الغربية لا تزال عاجزة عن ان تنظر الى ما وراء ذلك الافق الضيق من العداء الجنسي والقومي . **ان الاسلام لم يعرف الطبقات الاجتماعية ولا حروب تلك الطبقات في مجتمعه ، ولكن التاريخ الاوربي كله - منذ ايام اليونان والرومان - مملوء بالكفاح بين الطبقات وبالعداء الاجتماعي . ثم يجب علينا ان نعيد القول مرة بعد اخرى بان ثمة شيئاً واحداً يستطيع المسلمون ان يستفيدوا من تلقيه عن الغرب ، ذلك هو العلوم الطبيعية والرياضية في اشكالها الخالصة والتجريبية .** على ان هذه الضرورة الى طلب العلم من الخارج يجب ألا تحمل المسلم على اعتبار المدنية الغربية ارقى من مدنيته ، وإلا لا يكون حينئذ على بيّنة من قيمة الاسلام . إن تفوّق ثقافة ما او مدنية ما على غيرها لا يمكن ان يقوم على معرفة مادية واسعة المدى ( مع ان ذلك امر مستحب ) ، ولكنه يقوم على نشاطها الخلقي وعلى استطاعتها العظمى في ان تعلل وفي ان توفق بين نواحي الحياة الانسانية كلها ، وفي هذه الناحية يسمو الاسلام على كل ثقافة اخرى . فيجب علينا ان نتبع اوامر الاسلام حتى نستطيع ان نبلغ الى اقصى ما يستطيع البشر ان يبلغوا اليه . ولكننا لا

نستطيع ان نقلد المدنية الغربية ، ولا يجب علينا ان نفعل ذلك ، اذا اردنا ان نحفظ للاسلام قيمته وان نعمل على احيائها . ان الشر الذي يحدثه التأثير العقلي لتلك المدنية في المجموع الاسلامي لهو ابعد مدى من الفائدة المادية التي تستطيع تلك المدنية ان تمنّ علينا بها .

واذا كان المسلمون قد اهملوا فيما مضى البحث العلمي فانهم لا يستطيعون ان ينتظروا اصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم من غير وازع ما . ان كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوازنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الاسلام الدينية الكامنة . اذا اردنا ان نحفظ حقيقة الاسلام على انها عنصر ثقافي فيجب علينا ان نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية ، ذلك الجو الذي اصبح على وشك ان يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا . وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين الى الاخذ بوجهة النظر الغربية : ان تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً الى تقبّل الميل العقلي المصاقب لذلك .

# في التقليد

•

ان تقليد المسلمين – سواء اكان فردياً ام اجماعياً – لطريقة الحياة الغربية لهو بلا ريب اعظم الاخطار التي تستهدف لها الحضارة الاسلامية . ذلك المرض ( ومن الصعب ان نسميه بغير هذا الاسم ) يرجع الى ما قبل بضعة عقود ويتصل بقنوط المسلمين الذين رأوا القوة المادية والتقدم في الغرب ، ثم وازنوا بينهما وبين الحالة المؤسفة في بيئتهم الخاصة . ولقد كان من جهل المسلمين لتعاليم الاسلام – وذلك راجع في الاكثر الى ضيق ناحية التفكير في اولئك الذين نسميهم الفقهاء [ والى انصراف القادة والزعماء الى ملاذهم ومنازعاتهم الشخصية عن خدمة امتهم وشعوبهم ] – أن نشأت الفكرة القائلة بان المسلمين لا يستطيعون ان يسايروا الرقي الذي نراه في سائر انحاء العالم ما لم يتقبلوا القواعد الاجتماعية والاقتصادية التي قبلها الغرب . لقد كان العالم الاسلامي زمناً ما راكداً : فقفز كثيرون من المسلمين الى الاستنتاج السطحي الخالص من ان النظام الاسلامي في الاجتماع والاقتصاد لا يتفق مع مقتضيات التقدم ، فيجب من اجل ذلك ان يحوّر حسب الاسس الغربية . هؤلاء الناسُ « المتنوّرون » لم يكلفوا انفسهم عناء البحث عن مدى التَبِعةِ التي

يتحملها الاسلام ، على انه عقيدة ، في تأخر المسلمين . ثم انه لم يتح لهم ان يروا موقف الاسلام الحقيقي ، اي كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية ، ولكنهم اكتفوا من ذلك كله بان رأوا ان تعاليم فقهائهم المعاصرين كانت سداً منيعاً في وجـــه الرقي ووجه التقدم المادي . ثم انهم بدلاً من ان يُوَلوا ابصارهم نحو المصادر الاصلية في الاسلام اعتبروا ضمناً ان الشريعة والفقه المتحجر في ايامنا هذه شيء واحد . وقد وجدوا ان الثاني ناقص من عدة وجوه ففقدوا بالتالي كل اهتمام عملي بالشريعة واحالوها الى حقل التاريخ والمعرفة المدفونة في الكتب . ثم بدا لهم ان تقليد المدنية الغربية هو المخرج الوحيد من ورطة الانحلال الاسلامي . [ اما التبعة في مـــا وصل اليه المسلمون من تأخر فتقع على عاتق العلماء والشباب المثقفين وعـلى عاتق القادة الذين يتاجرون بالدين وبالبلاد، وليس لاحد من هؤلاء ان يتنصل من هذه التبعة ، فكلهم مسؤولون عن تأخر المسلمين الاقتصادي والسياسي والعلمي في كل مكان ].

*

ان خير المؤلفات الحديثة من ناحية التفكير ـ ومنها الكتاب القيم « اسلاملاشمق » ( اعتناق الاسلام ) للامير سعيد حليم باشا ـ والتي تقطع بان الشريعة الاسلامية ليست حجر عـــثرة في سبيل التقدم الحديث كما ظن بعضهم اخيراً ـ قد تأخرت في الظهور فـلم تستطع ان تَقِفَ التيارَ الذي طما عـــلى الكثيرين من المسلمين باعجاب اعمى بالمدنية الغربية . ثم ان القوة عـــلى الشفاء في هـذه المؤلفات قد بطلت بفعل سيل من الكتابات (وضعها اهلها فيما ظنوا

للدفاع عن العقائد الاسلامية ) . هذه الكتابات ، وان لم تنكر التعاليم العملية في الاسلام بصراحة ، فانها حاولت ان تري ان الشريعة يمكن ان تخضع بسهولة للآراء الاجتماعية والاقتصادية في المدنية الغربية . فتقليد المسلمين للمدنية الغربية كان على ما يظهر مبرراً عند بعضهم ، ولقد كانت الطريق معبدة امام التخلي تدريجاً عن ابسط مبادىء الاسلام الاجتماعية – ولكن دائماً تحت ستار « التقدم » الاسلامي – مما يسم اليوم عدداً من ارقى الدول الاسلامية .

وليس ثمة من فائدة في ان نجادل – كما يفعل بعض «المتنورين» من المسلمين – ونزعم اننا لن نتعرض لعواقب روحية ما ، فيما لو عشنا حسب هذا السبيل او حسب ذلك ، او فيما لو لبسنا ثياباً اوروبية او آسيوية ، او فيما لو كنا محافظين في عاداتنا او غير محافظين . ليس في الاسلام قِصر نظر ، ذلك مما لا شك فيه . ولقد سبق لنا القول في الفصل الاول بان الاسلام منّ على الانسان بمجال واسع ، من وجوه الامكان ، ما دام لا يفعل ما يناقض الاوامر الدينية . ثم انه بصرف النظر عن ان كثيراً من الاشياء التي هي في جوهرها جزء من الكيان الاجتماعي – كالحرية في المباشرة الجنسية مثلاً او الربا الذي يعتبر اساساً للجهود الاقتصادية – تتنافى مع تعاليم الاسلام منافاة لا تحتمل الاخذ والرد ، فان الميزة الاساسية للمدنية الغربية ، كما اظهرنا من قبل ، تمنع التوجيه الديني في الانسان منعاً باتاً . وان السطحيين من الناس فقط ليستطيعون ان يعتقدوا انه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية

من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها. إن المدنية ليست شكلاً اجوف فقط ولكنها نشاط حي . وفي اللحظة التي نبدأ فيها بتقبّل شكلها تأخذ مجاريها الاساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا ، ثم تخلع على اتجاهنا العقلي كله شكلاً معيناً ولكن ببطء ومن غير ان نلحظ ذلك .

ولقد قدر الرسول هذا الاختيار حق قدره حينما قال : « من تشبّه بقوم فهو منهم [1] » . وهذا الحديث المشهور ليس ايماءة ادبية فحسب بل هو تعبير ايجابي يدل على ان لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها .

ومن هذه الناحية قد يستحيل ان نرى الفرق الاساسي بين « المهم » وبين « غير المهم » في نواحي الحياة الاجتماعية . وليس ثمة خطأ اكبر من ان نفترض ان اللباس مثلاً شيء خارجي بحت وان لا خوف منه على « حياة الانسان » العقلية والروحية . انه على وجه العموم نتيجة تطور طويل الامد لذوق شعب ما في ناحية معينة . وزي هذا اللباس يتفق مع الادراك البديعي لذلك الشعب ومع ميوله . لقد تشكل هذا الزي ثم ما فتىء يبدل اشكاله باستمرار حسب التبدل الذي طرأ على خصائص ذلك الشعب وميوله . فالزي الاوروبي اليوم مثلاً يتفق تماماً مع الخصائص العقلية في اوروبة ، وبلبس الثياب الاوروبية يوفق المسلم من غير شعور ظاهر بين ذوقه والذوق الاوروبي ثم يشوه « حياته » العقلية بشكل يتفق نهائياً مع اللباس الجديد . وبعمله هذا يكون ( المسلم ) قد تخلى عن

(١) مسند ابن حنبل وسنن ابي داود .

الامكانيات الثقافية لقومه وتخلى عن ذوقهم التقليدي وتقبّل لباس العبودية العقلية الذي خلعته عليه المدنية الاجنبية .

اذا حاكى المسلم اوروبة في لباسها وعاداتها واسلوب حياتها فانه يتكشّف عن انه يؤثر المدنية الاوروبية ، مهما كانت دعواه التي يعلنها . وانـــه لمن المستحيل عملياً ان تقلد مدنية اجنبية في مقاصدها العقلية والبديعية من غير اعجاب بروحها ، وانـــه لمن المستحيل ان تُعجَبَ بروح مدنية مناهضة للتوجيه الديني — وتبقى مع ذلك مسلماً صحيحاً .

ان الميل الى تقليد التمدُّن الاجنبي نتيجةُ الشعور بالنقص . هذا ، ولا شيء سواه ، ما يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية . انهم يفاضلون بين قوتها ومقدرتها الفنية ومظهرها البراق وبين البؤس المحزن الذي أَلمّ بالعالم الاسلامي ، ثم يأخذون في الاعتقاد بانه ليس في ايامنا هذه من سبيل إلا سبيل الغرب . وانك لترى لوم الاسلام على تقصيرنا نحن زياً شائعاً بيننا اليوم . واما في افضل الاحوال فان اولئك الذين نسميهم عقلاء من بيننا يتخذون موقفاً اعتذارياً ويحاولون ان يقنعوا أنفسهم ويقنعوا الآخرين بان الاسلام يمكنه بسهولة ان يتشرب روح المدنية الغربية .

وكيما يستطيع المسلم إحياء الاسلام يجب ان يعيش عـــالي الرأس ، يجب عليه ان يتحقق انـه متميز وانه مختلف عن سائر الناس ، وان يكون عظيم الفخر لانه كذلك . ويجب عليـه ان يكدّ ليحتفظ بهذا الفارق على انه صفة غالبة وان يعلن هذا الفارق على الناس بشجاعة بدلاً من أن يعتذر عنه بينما هو يحـــاول ان

يذوب في مناطق ثقافية اخَر . على ان هذا لا يعني ان المسلمين يجب ان يُصموا آذانهم عن كل صوت يأتي من الخارج ، فان احدنا يستطيع دائماً ان يتقبل مؤثرات ايجابية جديدة من مدنيـة اجنبية ما من غير ان يهدم مدنيته ضرورةً . والنهضة الاوروبية احسن مثل في هذا الباب . فلقد رأينا كيف ان اوروبة تقبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم واساليبه عن طيبة خاطر ، ولكنها لم تقبل المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية قط ، ولم تضحّ استقلالها العقـلي او البديعي على الاطلاق. لقد اتخذت اوروبة من المؤثرات العربيـة سماداً لتربتها كما فعل العرب حينما استغلوا المؤثرات الهيلانية* في أيامهم . ولقد كانت النتيجة في كلتا الحالتين نمواً جديداً عظيماً للمدنية الاصلية ، مملوءاً بالثقة بالنفس وبالاعجاب . وما من مدنية تستطيع ان تزدهر أو ان تظل على قيد الوجود بعد ان تخسر اعجابها بنفسها وصلتها بمـــاضيها .

ولكن العالم الاسلامي ، وبه ميل متزايد الى محاكاة اوروبة والى اقتباس الآراء والمثل العليـا الغربية ، يقطع بالتدريج تلك الصلات التي تربطه بماضيه . وهو من أجل ذلك لا يفقد شيئـاً من مركزه الثقافي فحسب ، بل من مركزه الروحي ايضاً . انه يشبه الشجرة التي كانت قوية حينما كانت بعيـدة الجذور في الارض . ولكن ميول المدنية الغربية ازالت التراب عن جذورها فاخذت هي تنحلّ ببطء لفقد الغذاء فسقطت اوراقها وذبلت غصونهـــا . ولكن عند اسفل جذعهـــا يبرز الخطر الذي يهددها بالسقوط

* اليونانية المتأخرة .

الى الارض .

✲

فالمدنية الغربية إذن لا يمكن ان تكون الوسيلة الصحيحة لايقاظ العالم الاسلامي من سباته العقلي والاجتماعي ، ذلك السبات الذي أدى إلى انحلال مظاهر الدين حتى اصبحت عادة مجردة لا حياة لها ولا باعث اخلاقياً فيها . فاين يجب على المسلمين إذن ان يبحثوا عن الباعث الروحي والعقلي الذي هم اليوم في اشد الحاجة اليه ؟ ان الجواب على ذلك سهلٌ سهولة السؤال عنه ، بل انه متضمن في السؤال نفسه . ان الاسلام – كما سبقت الاشارة الى ذلك مراراً – ليس « اعتقاداً بالجَنان » فقط ، ولكنه فوق ذلك منهاج ظاهر الحدود تام الظهور للحياة الفردية والاجتماعية . ويمكن ان يُهدّم الاسلام باتخاذ المسلمين ثقافة اجنبية تختلف منه اختلافاً جوهرياً في اسسها الأخلاقية ، وكذلك يمكن ان ينتعش حالما يُرجَع به الى حقيقته الخاصة به ، وتُنسب اليه قيمةٌ هي العنصر الذي يقرر ثم يؤلف كياننا الفردي والاجتماعي في جميع نواحيه .

✲

**وفي هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الاسلام أن يظل شكلاً أجوف . لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالا فيجب أن ينهض أو ان يموت . ان المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق طرق : انه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه ، ولكن هذا يعني انه سيموت جوعاً ، وهو يستطيع أن**

يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان : « نحو المدنيـــة الغربية » ،ولكنه حينئذ يجب ان يودع ماضيه الى الابد،او انه يستطيع ان يختار الطريق التي كتب عليها : «إِلى حقيقة الاسلام».

ان هذه الطريق وحدها هي التي تستميل اولئك الذين يعتقدون بماضيهم وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي .

# الحديث والسنة

•

لقد عُرضت اقتراحات كثيرة للاصلاح في أثناء العقود الاخيرة، وحاول كثيرون من الاطباء الروحيين تركيب علاج ناجع لجسم الاسلام المريض ، ولكن جهود هؤلاء كلهم كانت الى الآن عبثاً. ذلك لأن جميع اولئك الاطباء الحذاق – او على الاقل اصحاب الكلمة المسموعة منهم – نَسُوا ان يضعوا مع هذا العلاج ومع الادوية المعيدة للصحة ومع انواع الاكسير الغذاءَ الطبيعي الذي تقوم عليه النقاهة الاولى للمريض. هذا الغذاءُ الوحيد الذي يستطيع جسم الاسلام في حالتي صحته وسقامه ان يُقبل عليه،والذي تتمكن اجهزته من امتصاصه بكل تأكيد هو سنّة محمد . **لقد كانت السنة مفتاحاً لفهم النهضة الاسلامية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً ، فلماذا لا تكون مفتاحاً لفهم انحلالنا الحاضر ؟ ان العمل بسنة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الاسلام وعلى تقدمه ، وان ترك السنّة هو انحلال الاسلام ... لقد كانت السنّة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الاسلام، وانك اذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيدهشك بعدئذ ان يتقوّض ذلك البناء كأنه بيت من ورق ؟**

إن الحقيقة البسيطة التي اجمع على القول بها جميع العلماء في جميع أعصر التاريخ الاسلامي لا تلقى ، كما نعلم نحن جيداً ، قبولاً اليوم لأسباب تتعلق بمؤثرات المدنية الغربية ، تلك المؤثرات التي تزداد نمواً يوماً بعد يوم . إلا أن تلك هي الحقيقة الوحيدة التي يمكنها أن تنقذنا من الفوضى والعار اللذين سبّبهما انحلالنا الحاضر .

إننا نستعمل هنا كلمة « السنّة » بأوسع معانيها ،على انها المثال الذي اقامه لنا الرسول من اعماله وأقواله . إن حياته العجيبة كانت تمثيلاً حياً وتفسيراً لما جاء في القرآن الكريم،ولا يمكننا أن ننصف القرآن الكريم بأكثر من أن نتبع الذي قد بلّغ الوحي .

*

لقد رأينا ان من أهم مآتي الاسلام،تلك المآتي التي تميزه من سائر النظم المطلقة – التوفيق التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الحياة الانسانية . هذا سببٌ من الأسباب التي عملت على ظفر الاسلام في إبان قوته اينما حل . لقد أتى الاسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتقار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة . تلك الخاصة الظاهرة في الاسلام تجلو الحقيقة الدالة على ان نبينا ، الذي كان في رسالته الدليل الهادي للانسانية ، كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية في كلا اتجاهيها : في المظهر الروحي والمظهر المادي [ وعلى هـذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ] . وإنه لمن الجهـــل بالاسلام ان يحاول أحدنا أن يوفق بين أوامر للرسول تتعلق بامور تعبدية روحية خالصة وبين غيرها من التي تتصل بقضايا المجتمع وقضايا

حياتنا اليومية . وإن القول باننا مجبرون على اتباع الأوامر المتعلقة بالنوع الأول ولكننا لسنا مجبرين على ان نتبع الأوامر المتعلقة بالنوع الثاني إنما هو نظر سطحي،وهو فوق ذلك مناهض في روحه للاسلام مثل الفكرة القائلة بان بعض أوامر القرآن الكريم قد قُصد بها العرب الذين عاصروا نزول الوحي لا النخبة من الاكياس ( الجنتلمان ) الذين يعيشون في القرن العشرين. إن هذا بخس شديد لقدر الدور النبوي الذي قام به المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وكما ان حياة المسلم يجب ان تقوم على التعاون التام المطلق بين ذاته الروحية وذاته الجسدية ، فان هداية نبينا يجب ان تضمّ الحياة على انها وحدة مركبة ، أي على انها مجموع أعمق المظاهر الخلقية والعملية والشخصية والاجتماعية . وهذا هو أعمق معاني السنة .

ولقد قال القرآن الكريم : « وما آتاكُمُ الرَسولُ فَخُذُوهُ وما نهاكُمْ عَنْهُ فَانتهُوا ١ » ، وقال الرسول : « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرّقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة،وستتفرق امتي على ثلاث وسبعين فرقة ٢ ».وهنا يجب ان نذكر أن استعمال الرقم « سبعين » في اللغة العربية يدل غالباً على « الكثرة » وليس من الضروري ان يدلّ على عدد حسابي ايجابي . والظاهر من قول الرسول انه قصد ان يقول ان الفِرَقَ والشِيَع بين المسلمين ستكون كثيرة ، حتى انها لتكون اكثر من تلك التي بين النصارى واليهود . ثم ان الرسول اضاف الى ما تقدم قوله :

(١) القرآن الكريم ، سورة ٥٩ ( الحشر ) : ٧

(٢) سنن ابي داود وجامع الترمذي وسنن الدارمي ومسند ابن حنبل .

« كلهم في النار إلا واحدة » وحينما سأله الصحابة رضوان الله عليهم عن الفرقة المهتدية الناجية قال : « ما أنا عليه وأصحابي » . وهذا يعني أن اولئك الذين اتخذوا الرسول وأصحابه دليلاً يهتدون به في حياتهم هم الذين يسلكون السبيل الروحي للفوز . ثم إن هنالك آيات في القرآن الكريم تجلو هذه الناحية حتى لا تترك مجالاً ما للاختلاف في التأويل : « فَلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بيْنَهُمْ ، ثُمّ لا يَجِدُوا في أنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسليماً [1] » وكذلك : « قُلْ إن كُنْتُمْ تُحِبّون اللهَ فاتبِعوني يُحبِبْكُمُ اللهُ وَيَغفِرْ لكمْ ذنوبكم ، واللهُ غفورٌ رَحيمٌ . قُلْ أطيعُوا اللهَ والرسولَ فان تَولو فان اللهَ لا يُحب الكافرين [2] » .

فسنة الرسول إذن تاليةٌ للقرآن ، وهي المصدر الثاني للشرع الاسلامي وللسلوك الشخصي والاجتماعي . وفي الحقيقة يجب علينا أن نعتبر ان السنة انما هي التفسير الوحيد لتعاليم القرآن الكريم والوسيلة الوحيدة لاجتناب الخلاف في تأويل تلك التعاليم وتطبيقها في الحياة العملية . ان في القرآن آيات تنطوي على معنى رمزي ، ويمكن ان تُفهم على اوجه مختلفات إذا لم يكن لدينا طريقة صحيحة للتأويل . ان الروح السائد في القرآن الكريم هو ان يكون موثوقاً متفق الاجزاء ، على أن استنباط الاتجاه العملي الذي يجب ان نتخذه نحن ليس هيناً في جميع الاحوال . وما دمنا نعتقد ان

---

(١) سورة ٤ ( النساء ) : ٦٤ .
(٢) سورة ٣ ( آل عمران ) : ٣١ ـ ٣٢ .

القرآن الكريم كلام الله تاماً في مبناه ومعناه ، فالنتيجة المنطقية لذلك أنه لم يقصد به قط ان يكون مستقلاً عن هداية الرسول الشخصية على ما هي مبسوطة في السنة . وانّنا سنحاول في الفصل التالي تبيان الاسباب الغائيّة لاتصال القرآن الكريم — في جميع العصور — بشخصية الرسول الهادية الملهمة . ثم ان تفكيرنا يقودنا حتماً الى أنه ليس ثمة حَكَمٌ ، فيما يتعلق بالتأويل العملي لتعاليم القرآن الكريم افضلُ من الذي اوحيت اليه هذه التعاليم هدى للعالمين. ان التعبير الذي يتردد على مسامعنا اليوم كثيراً : « لنرجعْ الى القرآن الكريم ولكن يجب ان لا نجعل من انفسنا اتباعاً مستعبدين للسنة» ينكشف بكل بساطة عن جهل للاسلام . إن الذين يقولون هـذا القول يشبهون رجلاً يريد ان يدخل قصراً ولكنه لا يريد ان يستعمل المفتاح الاصلي الذي يستطيع به وحده ان يفتح الباب .

وهنا تعرض المشكلة الكبيرة التي تتعلق بصحة المصادر التي تكشف لنا عن حياة الرسول وتذكر اقواله . هذه المصادر هي الحديث ، وهو ما روي من اقوال الرسول واعماله التي ذكرها اصحابه ونقلوها ثم جمعت بعد التمحيص في القرون الاولى التي تلت الهجرة . هنالك كثيرون من المسلمين العصريين الذين يعلنون بانهم على استعداد للعمل بالسنة ، ولكنهم يظنون انهم لا يستطيعون الاعتماد على مجموع الحديث الذي تقوم عليه السنة . **ولقد اصبح من قبيل الزي في ايامنا هذه ان ينكر المرء مبدئياً صحة الحديث ، ثم هو من اجل ذلك ينكر نظام السنة كله .**

هل هنالك اساس علمي لهذا الاتجاه ؟ ام هل هنالك مبرر علمي

لرفض الحديث على انه مصدر يستند اليه الشرع الاسلامي ؟

إننا نظن أن خصوم الرأي الصحيح – مذهب اهل السنة فيما يتعلق بالحديث – يمكن ان يأتوا بادلة مقنعة فعلا تثبت مرة واحدة عدم الثقة بالاحاديث المنسوبة الى الرسول . ولكن ليس هذا موضوعنا . إنه على الرغم من جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحدّي الحديث على انه نظام ما ، فان اولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا ان يدعموا انتقادهم العاطفي" الخالص بنتائج من البحث العلمي . وانه من الصعب ان يفعل احد ذلك ، لأن الجامعين لكتب الحديث الاولى ، وخصوصاً الامامين البخاري" ومسلماً ، قد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضاً اشد كثيراً من ذلك الذي يلجأ اليه المؤرخون الاوروبيون عادة عند النظر في مصادر التاريخ القديم .

اننا نتخطّى نطاق هذا الكتاب اذا نحن اسهبنا في الكلام ، على وجه التفصيل ، في الاسلوب الدقيق الذي كان المحدثون – علماء الحديث – الاولون يستعملونه للتثبت من صحة كل حديث ، ويكفي – من اجل ما نحن هنا بصدده – ان نقول إنه نشأ من ذلك علم تام الفروع غايته الوحيدة البحث في معاني احاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها . ولقد استطاع هذا العلم في الناحية التاريخية ان يوجد سلسلة متماسكة لتراجم مفصلة لجميع الاشخاص الذين ذُكروا على انهم رواة أو محدثون . ان تراجم هؤلاء الرجال والنساء قد خضعت لبحث دقيق من كل ناحية ، ولم يُعَدّ منهم في الثقات الا اولئك الذين كانت حياتهم وطريقة روايتهم للحديث تتفق تماماً مع

القواعد التي وضعها المحدثون ، تلك القواعد التي تُعتبر على اشد ما يمكن ان يكون من الدقة . فاذا اعترض احد اليوم من اجل ذلك على صحة حديث بعينه او على الحديث جملة فان عليه هو وحده ان يُثبت ذلك . وليس ثمة من مبرر مطلقاً من الناحية العلمية ان يجرح احد صحة مصدر تاريخي ما ، ما لم يكن باستطاعته ان يبرهن على أن هذا المصدر منقوص . فاذا لم تقم حجة معقولة ، اي علمية ، على الشك في المصدر نفسه او في احد رواته المتأخرين ، واذا لم يكن ثمة من الناحية الثانية خبر آخر يناقضه ، كان حتماً علينا حينئذ ان نقبل الحديث على انه صحيح .

لنفرض مثلًا ان رجلًا ما كان يتكلم عن حروب محمود الغزنوي في الهند ، ثم نهضتَ انت وقلت له : « لا اعتقد ان محموداً الغزنوي كان يوماً ما في الهند وان ما تذكره خرافة لا اساس تاريخياً لها » . فماذا يمكن ان يحدث في مثل هذه الحال ؟ سينهض في الحال قوم متضلعون من التاريخ ويحاولون اصلاح خطأك فيستشهدون بكتب الاخبار والتاريخ المبنية على اخبار رواها معاصرو ذاك السلطان المشهور ويعتبرونها هم ادلة قاطعة تثبت ان محموداً ذهب الى الهند. في تلك الحال يجب عليك ان تذعن للبرهان والا عُدَّ وك فريسة للاوهام تنكر الحقائق التاريخية الثابتة من غير سبب واضح . فاذا كان ذلك كذلك فعلى الانسان ان يتساءل عما يمنع النقاد العصريين من ان يشملوا مشكلة الحديث ايضاً بهذه النظرية المنطقية الواسعة .

ان السبب الاول لوجود حديث مكذوب انما هو كذبة متعمدة ترجع الى مصدره الاول اي الى الصحابي أو الى احد الرواة

المتاخرين . أما فيما يتعلق بالصحابي فيمكن صرف التهمة عنه ابتداء . واننا لن نتكلف سوى شيء من النظر الثاقب في الناحية النفسانية لنردّ مثل هذه المزاعم الى نطاق الوهم الخالص . ان الاثر العظيم الذي تركته شخصية الرسول في اولئك الرجال انما هي حقيقة من أبرز حقائق التاريخ الانساني ، ثم هي فوق ذلك ثابتة بالوثائق التاريخية . فهل يمر في خيالنا ان اولئك الرجال الذين كانوا على استعداد لان يضحوا أنفسهم وما يملكون في سبيل رسول الله كانوا يتلاعبون بكلماته ؟ لقد قال الرسول : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[١]. لقد عرف الصحابة ذلك ، ولقد اعتقدوا ضمناً بكلام الرسول الذي كانوا ينظرون اليه على أنه ينطق عن الله . أفمن المحتمل ، من وجهة النظر النفسانية اذن ، ان يُغفلوا هذا النهي الصريح نفسه ؟

ان أول سؤال يواجه القاضي عند سماع الدعوى في محاكم الجنايات هو : « من ذا الذي يمكن ان يكون قد استفاد من ارتكاب الجريمة ؟ » ان هذا المبدأ القضائي يمكن ان يطبق على مشكلة الحديث . ثم اننا اذا استثنينا بعض الاحاديث التي تتعلق مباشرة بالاحوال الشخصية لدى بعض الافراد او الجماعات كالاحاديث التي هي بلا شك موضوعة والتي اتفق اكثر المحدثين على رفضها من مثل ادعاء الاحزاب المختلفة للخلافة في القرن الاول بعد وفاة الرسول ، لم يكن ثمت من سبب يرجع بالفائدة على احد ما

---

(١) صحيح البخاري ، سنن أبي داود ، جامع الترمذي ، سنن ابن ماجة ، سنن الدارمي ، مسند احمد بن حنبل .

فيما لو وضع الاحاديث على رسول الله . ولقـد كان من الادراك الصحيح لامكان وضع مثل هذه الاحاديث لغايات شخصية ان اعظم رجال الحديث الامامين البخاري ومسلماً حذفا من صحيحهما كل حديث يتعلق بسياسة الاحزاب . وأما ما بقي فقد كان ، على وجه التقريب ،وراء كل شك ،خالياً من كل فائدة شخصية لكل فرد .

ثم ان هنالك احتجاجاً آخر يمكن ان يتحدى الناس على اساسه صحة الحديث . فقد يقال ان الصحابي الذي سمع الحديث من شفتي الرسول او أحد الرواة المتأخرين قد اخطأ — مع انه في اعتقاد نفسه صادق — خطأ حمله عليه سوء فهم أو نسيان او سبب آخر من الأسباب النفسانية . ولكن الايقان الداخلي أي النفساني يشهد على بطلان امكان وقوع مثل هذا الخطأ الى حد كبير ، وعلى الأقل من الصحابة ، ذلك لان الذين عاشوا في صحبة الرسول رأوا جميعهم في اقوال الرسول واعمـاله اعظم الأهمية ، لا لأن شخصية الرسول أثرت فيهم فخلبت ألبابهم فقط بل لأنهم كانوا ايضاً على اعتقاد جازم بان ذلك كان أمراً من الله تعالى لتنظيم حياتهم حتى في ادق تفاصيلها ، كل ذلك اهتداءً بالرسول واقتداء به . من اجل ذلك لم يستطيعوا ان يتناولوا الاحاديث بلا اكتراث ، بل جربوا ان يتعلموها وان يحفظوها عن ظهر قلب ولو أدى ذلك الى شيء من الازعاج الشخصي لهم . ومما يروى ان الصحابة الذين كانوا يلازمون الرسول انقسموا رجلين رجلين ، فكان احد الرجلين يلازم الرسول مرة بينما يسعى الآخر وراء رزقه او يقوم على اموره ، ثم يلازم الرجل الآخر الرسول ليتمكن الاول من السعي وراء رزقه هو . وكان كلما سمع احدهما شيئاً عن الرسول

أو رأى عملاً من اعماله نقله الى صاحبه . ولقد كانوا جميعهم شديدي الحرص على ألا يفوتهم شيء من اقواله او افعاله . ومن المرجح انهم في مثل هذه المواقف قد اهملوا لفظ الحديث كما قاله الرسول تماماً . ولكن اذا كان مئات الصحابة قد حفظوا جميع القرآن الكريم غيباً بلفظه وبما فيه من فروق ضئيلة في الرسم (التهجئة) فلا ريب في انه كان ممكناً لهم وللتابعين من بعدهم ان يحفظوا اقوال الرسول متفرقة كما حفظوا القرآن سواء بسواء، ولكن من غير ان يزيدوا على الاحاديث او ان ينقصوا منها شيئاً. ان المحدثين يرون ان الحديث الصحيح ما رُوي واحداً في معناه ولكن باسانيد مختلفة مستقلة . ومع هذا كله فلم يَدُرْ في خلد مسلم ان احاديث الرسول تبلغ في المقام او في الصحة التي لا مجال فيها للجدال مبلغ القرآن الكريم ، ولم يخل زمن ما من دراسة للحديث ونقـــده . ثم ان الاحاديث الموضوعة ( المكذوبة ) لم تخف قط على المحدثين كما يزعم بعض النقاد الاوروبيين عن سذاجة ، بل اننا نرى عكس ذلك الزعم . ان علم الحديث بدأ لما مست الضرورة الى تمييز الحديث الصحيح من الحديث الموضوع ، وان صحيحي الامامين البخاري ومسلم ليسا سوى نتيجة مباشرة لهذا التمييز . فوجود الاحاديث الموضوعة إذن لا يمكن ان يكون دليلاً على ضعف نظام الحديث في مجموعه ، كما انه لا ينتظر من قصص الف ليلة وليلة ان تبرهن على شيء يتعلق بالاثبات او بالطعن في صحة الاخبار التاريخية المروية عن عصر تلك القصص .

لم يستطع ناقد ما حتى أيامنا هذه ان يبرهن بطريقة منظمة

ذات قواعد على ان مجموع الاحاديث التي تعتبر صحيحة حسب القواعد التي وضعها أئمة المحدثين هي غير صحيحة. إن رفض الاحاديث الصحيحة، جملة واحدة او اقساماً، ليس حتى اليوم – كما سبق لنا القول – إلا قضية ذوق، قضية قصرت عن ان تجعل من نفسها بحثاً علمياً خالصاً من الاهواء. وان السبب الذي يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه الى مصدره. ان السبب يرجع الى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الاسلام الصحيح، كما يظهر في سنة النبي، في نظام واحد. ولكي يستطيع نَقَدَة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم فانهم يحاولون ان يزيلوا ضرورة اتباع السنة، لانهم اذا فعلوا ذلك كان بامكانهم حينئذ ان يتأوّلوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجهٍ من «التفكير» السطحي – أي حسب ميول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو. ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للأسلام – على انه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي – تنتهي بهذه الطريقة الى التهافت والاندثار.

وفي هذه الايام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الاسلامية نجد سبباً جديداً يضاف الى الموقف المستغرب الذي يقفه من نسميهم «متنوري المسلمين» من هذه القضية، ذلك هو قولهم انه من المستحيل ان نعيش على سنة النبي وان نتّبع الطريقة الغربية في الحياة في آن واحد. ثم إن الجيل المسلم الحاضر مستعد لأن يُكبِر كل شيء غربي وان يتعبد لكل مدنية اجنبية لأنها اجنبية ولأنها

قوية وبراقة من الناحية المادية . هذا التفرنج كان اقوى الاسباب التي جعلت أحاديث النبي وجعلت جميع نظام السنة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا . ان السنة تعارض الآراء الاساسية التي تقوم عليها المدنية الغربية معارضةً صريحة، حتى ان اولئك الذين خلبتهم الثانية لا يجدون مخرجاً من مأزقهم هذا الا برفض السنة على انها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لانها قائمة على احاديث لا يوثق بها . وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم ، لكي تظهر موافقة لروح المدنية الغربية ، اكثر سهولة .

# روح السنة

•

ان تبريو السنة من ناحيتها الباطنية الروحية انما هو على درجة واحدة من الاهمية تقريباً مع تبريوها شكلياً أو ، كما يقال ، شرعياً – وذلك فيما يتعلق بتقرير استنادها التاريخي الى الحديث . لماذا ننظر الى العمل بالسنة على انه امر لا بد منه اذا اردنا ان نحيا حياة تتفق في معناها مع الاسلام؟ أليس ثمة سبيل آخر الى حقيقة الاسلام سوى ذلك النظام المتسع من الاعمال والعـــادات والاوامر والنواهي ، مما نجد بعضه تافهاً ، وان كان جميعه مستقى من حيـاة الرسول ؟ مما لا شك فيه ان الرسول كان اعظم الرجال ، ولكن أليس الاجبار على تقليد حياته في جميع تفاصيلها الشكلية افتئاتاً على الحرية الفردية في الشخصية الانسانية ؟ هذا اعتراض قـديم يعترض به النقاد من غير الموالين للاسلام عادة ، اذ يقولون ان التشديد في اتباع السنة كان سبباً من الاسباب الاساسية التي قادت الى انحلال العالم الاسلامي . وقد ظنوا ان مثل هذا الاتجاه سيكون في النهاية اعتداء على حرية النشاط الانساني وعلى التطور الطبيعي للمجتمع . إن من اعظم الاهمية لمستقبل الاسـلام ان نعلم – سواء أكان باستطاعتنا ان نجيب على هذا الاعتراض ام لم يكن – ان موقفنا

من السنة هو الذي سيقرر موقفنا من الاسلام .

اننا فخورون بحق بان الاسلام كدين لا يقوم على عقيدة تصوفية ولكنه يتقبل دائماً البحث الانتقادي العاقل . فنحن من أجل ذلك على حق اذا كنا لا نكتفي بان نعلم فقط ان العمل بالسنة واجب علينا ، بل اذا تطلبنا ان نفهم السبب الملازم لهذا الوجوب .

بهذا نكون قد وصلنا الى مشكلة تستحق اعتباراً خاصاً . ان الاسلام يحمل الانسان على توحيد جميع نواحي الحياة . وبما ان هذا الدين واسطة الى هذه الغاية فانه يمثل في نفسه مجموع مدركات لا يجوز ان يضاف اليها شيء ولا ان ينقص منها شيء . كما انه ليس في الاسلام مجال للخِيَرة ، فاذا قبلنا تعاليمه كما بسطها القرآن الكريم فعلاً أو كما اوردها الرسول فيجب علينا ان نقبلها تامة وإلا خسرت قيمتها . ومن سوء الفهم الاساسي للاسلام أن نظنه ، وهو دين العقل ، يُخضع تعاليمه للاختيار الشخصي — وتلك دعوى نشأت من الخطأ الشائع في فهم الفلسفة العقلية . هنالك شقة واسعة — على ما اعترفت به أيضاً الفلسفة في جميع الاعصر — بين العقل وبين الفلسفة العقلية كما يفهمها عادة بعضهم اليوم . إن لعمل العقل فيما يتعلق بالتعاليم الدينية صفةَ الوازع ، وواجبه أن يرى أنه لا يُفرَض على العقل إلا ما يحتمله العقل بسهولة ومن غير لجوء الى الخدع الفلسفية . أما فيما يتعلق بالدين الاسلامي فان العقل البعيد عن الهوى قد وُثق به مرة بعد مرة ثقة مطلقة من كل قيد . ولكن هذا لا لا يعني أن كل انسان اتصل بالاسلام وجب عليه ضرورة أن يقبل تعاليمه كأنها حتم عليه ، تلك قضية مزاج وهي في آخر الامر — من

حيث الترتيب لا من حيث الأهمية — قضية اشراق روحـــي أو « هداية » كما يدعوها القرآن الكريم . وليس من شخص بعيد عن الهوى يجادل في الاسلام ليزعم أن فيه شيئاً مخالفاً للعقل. إلا انه مما لا شك فيه أن ثمت أشياء وراء حدود العقل الانساني، ولكنها لا تخالفه.

إلى هنا كان عمل العقل في الامور الدينية — كما رأينا — عملاً من الرقابـــة السلبية ، إنه آلة تسجيل تقول « نعم » أو « لا » كما تقتضي الحال . ولكن ليس الامر كذلك في ما يسمونه بالفلسفة العقلية ، إنها لا تكتفي بالتسجيل والمراقبة بل تقفز الى ميدان التفكير السلبي . انهـــا ليست متفهمة ولا مستقلة كالعقل المطلق ولكنها ذاتية مزاجية الى الحد الاقصى . ان العقل يعرف حدوده الخاصة به ولكن الفلسفة العقلية تتخطى المعقول في ادعـائهـا حصر العالم بجميع خفاياه في نطاقها الفردي الضيق . وهي لا تكاد تسلّـم في الامور الدينية بانه من الممكن وجود أشياء لا يطيقها الفهم الانساني في زمن ما أو في كل زمن ، مع انهـــا في الوقت نفسه تخالف المنطق الى حد انها تسلّم بهذا الامكان للعلم .

ان قدْرَ تلك الفلسفة العقلية غير المبدعة فوق قدرهـا هو أحد الاسباب التي تحمل كثيرين من المسلمين العصريين على أن يأبَوا إسلام أنفسهم الى هداية الرسول . وإننا اليوم لا نحتاج الى فيلسوف مثل « كَنْتْ »[1] ليبرهن لنا على ان الفهم الانساني محدود تماما بما ينطوي عليه من وجوه الامكان . ان عقلنا لا يستطيع ، بما رُكب

---

(١) عمانوئيل كنت أعظم الفلاسفة العقليين في العصر الحديث وأحد كبار الفلاسفة في جميع عصورها. وقد اشتهر بكتابه « نقد العقل المحض » (ت ١٨٠٤م).

في طبيعته ، ان يحيط بفكرة « الكلمة » . اننا نستطيع ان نفهم من كل شيء تفاصيله فقط . اننا لا ندري ما اللانهاية ولا ما الأزل حتى اننا لا نعلم ما الحياة . اما في قضايا الدين المبنيـــة على اسس مطلقة فاننا نحتاج ضرورة الى هادٍ يتصف عقـله بشيء فوق مـا يتصف به التفكير المادي وفوق ما تتصف به الفلسفة العقليـــة الذاتية العامة فينا : اننـا نحتاج الى من اشرق عليه نور الله — أو بكلمة واحـدة الى نبي . فاذا كنا نعتقد ان القرآن الكريم كلام الله وان محمداً رسول الله ، فاننا نصبح حينئذ ملزَمين ادبياً وعقلياً بان نتبع هدى الرسول اتباعاً أعمى . على ان التعبير « أعمى » لا يعني اننا نحب ان نطرح جميع قـــوى العقل ، بل بالعكس يجب علينا ان نستغل تلك القوى في احسن وجوه مقدرتنا واستعدادنا : يجب علينا ان نجرب الكشف عن المعنى اللازم لتلك الأوامر التي جاء بها النبي . على ان الواجب يحملنا في كل حال ان نطيع تلك الأوامر سواء أكنا قادرين على فهمها أم لم نكن . واحبّ ان اضرب هنا مثلاً جندياً أمره قائده ان يحتل مركزاً حربياً ما . ان الجندي الصحيح يسمع هذا الأمر وينفذه في الحال . فاذا استطاع الجندي في هذه الاثناء ان يفهم بنفسه الغاية الحربية القصوى التي تخيلهـــا قائده ، كان ذلك من حسن حظه وحسن حظ الجيش ، لكن اذا لم ينكشف له فليس من شأنه ان يترك تنفيـــذ ذلك الأمر او ان يؤجله . **ونحن المسلمين نعتقد ان نبينا احسن قائد عرفه البشر ، ونحن نعتقد بطبيعة الحال انه كان يعرف امر الدين بناحيتيه الروحية والاجتماعية اكثر مما استطعنا نحن ان نعرفه . فاذا امرنا**

**بشيء او نهانا عنه فلأنه كان أمراً « مقدراً » يرى هو أنه لاغنى عنه لصلاح الناس الروحي والاجتماعي** .وقد يكون هذا الأمر ظاهراً بوضوح ، وقد يخفى كثيراً او قليلاً عن عين الرجل العادي القليل المران . ثم اننا أحياناً نستطيع ان نفهم أبعد الأهداف في اوامر الرسول ، وأحياناً لا نفهم إلا القصد السطحي منها .ومهما كان من الأمر فالواجب علينا ان نعمل بأوامر الرسول عـــلى ان تكون صحتها قد ثبتت من طرق معقولة. ومما لاشك فيه ان في أوامر الرسول ما هو عظيم الأهمية ومنها ما هو أقل أهمية ، فعلينا أن نقدم الاهم على المهم . ولكن لا يحق لنا أبداً ان نطرح شيئاً منها على زعم انها تبدو لنا غير جوهرية ، فقد جاء عن محمد في القرآن الكريم : « وما يَنطِـقُ عن الهوى » (سورة ٥٣ النجم : ٨ ) ، ومعنى هذا انه لا ينطق الا اذا كان ثمة ضرورة ايجابية ، وانه ينطق لأن الله تعالى امره بذلك . من أجل هذا كله نرانا مضطرين الى ان نعمل بسنة نبينا قلباً وقالباً اذا اردنا ان نُخلص وجهنا للاسلام .

✲

فاذا تحقق المسلم الضرورة الايجابية للعمل بسنة نبيه اصبح من حقه حينئذ ، بل من واجبه ، ان ينظر في الدور الذي تقـــوم به السنة في بناء الاسلام الاجتماعي . ما المعنى الروحي لذلك النظام المفصل من تلك القوانين وآداب السلوك ، التي يجب ان تتخلل حياة المسلم منذ ولادته الى يوم وفاته ،والتي يجب ان تعين له سلوكه في أهم نواحي وجوده وفي أقلها اهمية على السواء ، أو في تلك التي قد لا يكون لها معنىً ما على الاطلاق؟وما الخير في ان يأمر الرسول

أتباعه بان يفعلوا كل شيء كما كان هو يفعله ؟ ما الفرق في ان آ كل باليد اليمنى او باليد اليسرى - اذا كانتا كلتاهما نظيفتين على السواء ؟ أليس هذا وامثاله من الامور الشكلية الخالصة ؟ او لها صلة مابتقدم البشر أو بخير المجتمع ؟ واذا لم تكن كذلك فلماذا فرضت علينا ؟

هذا هو الوقت المناسب لنا - نحن الذين نعتقد ان رقي الاسلام وانحطاطه متعلق باتباع السنة - ان نجيب على هذه الاسئلة .

هنالك على ما أعلم ثلاثة اسباب بينة على الاقل لاقامة السنة :

فالسبب الاول تمرين الانسان بطريقة منظمة على ان يحيا دائماً في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس ، فان الاعمال والعادات التي تقع عفو الساعة تقوم في طريق التقدم الروحي للانسان كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة . ان هذه الاعمال والعادات يجب ان تقل الى اقصى حدودها لأنها تتلف التوجيه الروحي للفكر ، فكل شيء نفعله يجب ان يكون مقدوراً بارادتنا وخاضعاً لمراقبتنا الروحية . ولكن قبل ان نتوصل الى ذلك يجب ان نتعلم مراقبة انفسنا . ان ضرورة ضبط النفس ابداً قد عبر عنها في الاسلام عمر بن الخطاب احسن التعبير فقال : « حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا » ولقد قال الرسول ايضا : « اعبد ربك كأنك تراه [1] » .

لقد اشرنا من قبل الى ان الفكرة الاسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب ولكنها تشمل فعلاً حياتنا كلها ، اما هدفها فهو جمع ذاتنا الروحية وذاتنا المادية في « كل » واحد . من اجل

(١) صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن ابي داود وسنن النسائي .

ذلك وجب ان تكون جهودنا موجهة بوضوح نحو ازالة العوامل التي تنشط في حياتنا على غير وعي منا وغير خضوع لسيطرتنا ، فنزيلها بالقدر الذي تتحمله طاقة البشر . ان محاسبة النفس هي اولى الخطوات في هذا السبيل ، وان اوثق الوسائل للتمرين على محاسبة النفس ان تخضع اعمالنا التي تجري في حياتنا اليومية بحكم العادة وبغير مبالاة ظاهرة ، للمراقبة . ان هذه « الصغائر » وتلك الاعمال والعادات « القليلة الاهمية » هي في الحقيقة فيما يتعلق بالمران العقلي الذي نتكلم عليه ، اكثر أهميةً من اوجه النشاط « العظمى » في حياتنا ، إذ ان الامور « العظمى » بالاضافة الى عظمها ، تبقى دائماً بادية بوضوح وتظلّ غالباً في نطاق وعينا . ولكن تلك الامور « الصغيرة » تغرب بسهولة عن بالنا وتخدعنا عن مراقبتنا لها . من اجل ذلك كانت تلك الصغائر اشياء اكثر نفعاً لنا في شحذ قوة ضبط النفس فينا .

**قد لا يكون من المهم في ذاته ان نأكل باي اليدين ، ولكن إذا اعتبرنا التنظيم فمن اشد الامور اهمية ان نأتي اعمالنا مقدّرةً بنظام . وليس من السهل على الاطلاق ان يبقى الانسان في تنبه مستمر لمحاسبة النفس وضبطها ، حتى ولو كانت فيه هاتان القوتان مثقفتين غاية التثقيف.** ان كسل العقل لا يقل في حقيقته عن كسل الجسم ، فانك إذا سألت رجلا تعوّد حياة القعود ان يسير مسافة ما فانه لا يسير غير قليل حتى يتعب ويصبح غير قادر على ان يتابع مسيره ، وليس هذا شأن من تعوّد في حياته كلها ان يمشي ومَرِن على ذلك ، ثم لا يجد في هذا النوع من الجهد العضلي جهداً على

الاطلاق ، بل يجد فيه عملاً جسمانيا مُستطاباً كان قد تعوده من قبل . فهذا تعليل آخر يرينا لماذا تشمل السنة كل ناحية من نواحي الحياة الانسانية تقريباً . فاذا تحتم علينا ابداً ان نُخضع جميع ما نعمل وجميع ما نترك لتمييز عقلي معلوم ، فان مقدرتنا على ضبط النفس واستعدادنا لذلك ينموان تدريجاً ثم يصبحان فينا طبيعة ثانية . وفي كل يوم — مـا دام هذا التمرين مستمراً — يتناقص كسلنا الادبي حسب ذلك .

إن استعمال التعبير « تمرين » يقتضي بطبيعة الحال ان تكون قوته الفعالة معتمدة على الوعي في القيام به . وفي اللحظة التي ينحط فيها العمل بالسُنّة الى عمل آلي ، تفقد السنة قيمتها المثقّفة فقداناً تاماً ، وكذلك كان شأن المسلمين في الاعصر الاخيرة . اما الصحابة والتابعون الذين قـاموا بكل مسعى لجعل كل دقيقة في حياتهم موافقة لما كان عليه الرسول ، فانهم فعلوا ذلك مع الفَهْم التام بانهم اسلموا انفسهم الى ارادة هـادية تجعل حياتهم مطابقة لروح القرآن الكريم ، وبالاضافة الى هذا الفهم استطاعوا ان يستفيدوا من التمرين على العمل بالسنة اعظم ما يمكن لهم ان يستفيدوا . وليس الخطأ على النظام ، اي نظام السنة ، اذا كان المسلمون في الاعصر المتأخرة لم يحسنوا السير على السبل التي شقتها لهم . ولعل هذا الاهمال للعمل بالسنة راجع في الاعم الاغلب الى نفوذ التصوف الفارسي الذي ازدرى القوى الفاعلة في الانسان وبالغ في تأكيد قيمة القوى المستوحية فيه . وبمـا ان العمل بالسنّة اصبح جزءاً جوهرياً من الحياة الدينية الاسلامية منذ بدء الدعوة ، فان الصوفية

لم تستطع ان تستأصله مبدئياً ، ولكنها استطاعت ان تبطل قوته الفعالة وان تبطل من اجل ذلك ، الى حد ما ، نفعه المرتجى . وهكذا صارت السنة في نظر المتصوفين رسماً ذا قيمة افلاطونية ( رمزية ) فقط وذا اساس صوفي ، واما الفقهاء والمتشرعون فكانت في نظرهم نطاقاً من القوانين ، واما عامة المسلمين فكانت عندهم صدفةً فارغة لا معنى لها على الاطلاق . ومع ان المسلمين قد قصروا في الاستفادة من تعاليم القرآن الكريم ومن تفسير تلك التعاليم بسنة الرسول ، فان الفكرة التي تقوم عليها تلك التعاليم مع تفسيرها بالسنة لا تزال سليمة ، وليس ثمت ما يمنع العودة الى العمل بها ثانية . ثم ان السنة ليست ، كما يزعم النقاد من الخصوم ، من نتاج المرائين والظاهريين الجفاة ، ولكنها نتاج رجال ذوي وعي وعزيمة ولوذعية ، واصحاب رسول الله كانوا من هذا الطراز الاول . ان وعيهم الدائم ويقظتهم الباطنة وشعورهم بالتبعة في كل شيء — كانت هي سرّ الاعجاز في مقدرتهم وفي فوزهم التاريخي المدهش .

هذه هي الناحية الاولى والناحية الفردية كما يقال . اما الناحية الثانية فهي الاهمية الاجتماعية والنفع الاجتماعي . يكاد لا يكون ريب في ان اكثر المنازعات الاجتماعية ترجع الى سوء فهم بعض الناس لاغراض بعضهم الآخر ولمقاصده . وسبب سوء الفهم هذا اختلاف الامزجة والميول في افراد البيئة الاجتماعية اختلافاً كبيراً. فان الامزجة المختلفة تحمل الناس على عادات مختلفة ، وهذه العادات المختلفة اذا تبلورت بالمراس سنين طوالاً اصبحت حواجز بين الافراد . ولكن اذا اتفق على عكس ذلك ، ان نفراً اتخذوا في

حياتهم كلها عادات معينة ترجح ان تقوم صلاتهم المتبادلة على التعاطف، وان يكون في عقولهم استعداد للتفاهم. من اجل ذلك جعل الاسلام - وهو الحريص على خير الناس الاجتماعي والفردي - من النقاط الجوهرية ان يحمل بنفسه افراد البيئة الاجتماعية بطريقة منظمة على ان تكون عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت احوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة.

ومع هذا فان السنة مع ما فيها من « التشدد » المزعوم تقوم نحو المجتمع بخدمة اعظم: انها تجعله متماسكاً مستقراً في شكله، وتحول دون تطور العداء والنزاع، كما اتفق في المجتمع الغربي، إذ اثار ذلك التطور اضطراباً عظيماً تحت ستار ما يسمونه القضية الاجتماعية. ان مثل هذه القضايا الاجتماعية تنشأ حينما يبدأ الناس في النظر الى بعض المؤسسات او العادات على انها غير كاملة في نفسها، وأنها من أجل ذلك خاضعة للانتقاد والتبدل المستمر. ولكن فيما يتعلق بالمسلمين - اي اولئك الذين يعدون انفسهم مقيدين بشريعة القرآن الكريم وبالتالي باوامر الرسول، فان احوال المجتمع عندهم يجب ان يكون لها مظهر مستقر لانهم يرجعون بها الى اساس مطلق. وما دام هذا الاساس لا يحوم حوله ريب ما فليس ثمت من حاجة ولا رغبة في تبديل التنظيم الاجتماعي الذي نتج منه. وهكذا فقط نستطيع ان ندرك الامكان العملي لما يفترضه القرآن الكريم من ان المسلمين يجب ان يكونوا « كالبنيان المرصوص ». فلو انا طبقنا هذا المبدأ تماماً لما كان المجتمع مضطراً الى ان ينفق جهوداً على امور فرعية واصلاح

اجتماعي ليس لها كلها — حسب طبيعتها نفسها — سوى قيمة زائلة . فاذا تحرر المجتمع الانساني من الاضطراب الكلامي ( الجدليّ ) ثم بُني على قواعد من الشرع الالهي والاقتداء بالرسول، فانه يستطيع حينئذ ان يستغلّ جميع قواه في معالجة مسائل تسبغ على المجتمع رفاهية حقيقية ، مادية وعقلية ، فتمهد الطريق امام الفرد للسير في جهوده الروحية . هذا ولا شيء سواه ، هو الغرض الديني للتنظيم الاجتماعي في الاسلام .

ثم نأتي الى الناحية الثالثة من السنة والى التشدد في العمل بها .

في هذا النظام من العمل بالسنة يكون كل شيء في حياتنا اليومية مبنياً على الاقتداء بما فعله الرسول . وهكذا نكون دائماً، اذا فعلنا او تركنا ذلك ، مجبرين على ان نفكر باعمال الرسول واقواله المماثلة لاعمالنا هذه . وعلى هذا تصبح شخصية اعظم رجل متغلغلة الى حد بعيد في منهاج حياتنا اليومية نفسه ، ويكون نفوذه الروحي قد اصبح العامل الحقيقي الذي يعتادنا طول الحياة . ذلك يقودنا عن وعي منا أو عن غير وعي الى ان ندرس موقف النبي في كل امر . فحينئذ نتعلم ان ننظر اليه ، لا على انه صاحب وحي ادبي فقط ، بل على انه الهادي الى الحياة الكاملة ايضاً . وقبل ان نتزحزح عن هذه النقطة يجب ان نجزم فيما اذا كنا نعد النبي رجلاً حكيماً كغيره من الحكماء ، او انه رسول الله الاسمى الذي يعمل دائماً بوحي الهي . ان نظرة القرآن الكريم الى هذا الامر واضحة الى حد انها تجعل كل سوء فهم لها غير ممكن . ان الرجل الذي أرسِل « رحمة للعالمين » لا يمكن الا ان يكون

موحى اليه على الدوام ، فاذا ابينا عليه هداه أو أبينا بعض عناصر هذا الهدى ، فان هذا لا يعني شيئاً أقل من اننا نأبى رحمة الله أو نبخسها حقها ، ويعني فوق ذلك – اذا تابعنا هذه الفكرة منطقياً – ان الرسالة التي جاء بها الاسلام لم تكن حتى بمجموعها ، الحل النهائي لقضايا البشر ، بل كانت حلا آخر قد يكون مساوياً له في الصحة والفائدة ، وان المفاضلة بين هذين الحلين قد تُركت لفطنتنا نحن : هذا المبدأ الهين – لانه لا يجبرنا أدبياً ولا عملياً على أن نجزم بشيء مطلقاً – قد يقودنا الى كل مكان ولكنه بكل تأكيد لا يقودنا الى روح الاسلام ، وقد جاء في القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » ( المائدة ٣ ) .

**نحن نعد الاسلام أسمى من سائر النظم المدنية ، لانه يشمل الحياة بأسرها : إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد وبالفرد وبالمجتمع، إنه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الانسانية من وجود الامكان الى السمو ، بل يهتم أيضاً لما فيها من قيود طبيعية .** انه لا يحملنا على طلب المحال ولكنه يهدينا الى ان نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد ، والى ان نصل الى مستوى أسمى من الحقيقة – حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل. **إنه ليس سبيلا بين السبل ، ولكنه السبيل ! وإن الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هادياً من الهداة ، ولكنه الهادي . فاتباعه في كل ما فعل وما أمر اتباع للاسلام عينه ، واما اطراح سنته فهو اطراح لحقيقة الاسلام .**

# الخاتمة

•

حاولت في الفصول السابقة ان ابين ان الاسلام في معناه الصحيح لا يستطيع ان يستفيد من تشرّب المدنية الغربية. ولكن لم يبق للاسلام اليوم ، من الناحية الثانية ، سوى شيء ضئيل من القوة لا يستطيع بها ان يبدي مقاومة كافية ، ثم ان بقايا حياته الثقافية تتقوض في كل مكان بتأثير الآراء والعادات الغربية . وها نحن اولاء نسمع منه انين الاستسلام، والاستسلام في حياة الشعوب والثقافات معناه الموت .

ما بال الاسلام ؟ أهو حقيقة كما يريد خصومنا والمتخاذلون في صفوفنا ان يجعلونا نعتقد فيه من انه « جهود ذاهبة سدى » ؟ هل فقد الاسلام كل فائدة مرجوة ، وقدم للعالم كل ما كان ينتظر منه أن يقدمه ؟

يخبرنا التاريخ ان جميع الثقافات الانسانية وجميع المدنيات أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية . انها تمرّ في جميع ادوار الحياة العضوية التي يجب ان تمر بها : انها تولد ثم تشب وتنضج ثم يدركها البلى في آخر الامر . فالثقافات ، كالنبات الذي يذوي ثم يستحيل تراباً ، تموت في اواخر ايامها وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثاً .

أهذه اذن حال الاسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند القاء اول نظرة سطحية . مما لا شك فيه ان الثقافة الاسلامية شهدت نهضة مجيدة وعهداً من الإزهار ، وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الاعمال وانواع التضحية، ولقد غيرت معالم الشعوب وخلقت دولاً جديدة ، ثم سكنت وركدت واصبحت كلمة جوفاء ، وها نحن اولاء اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها . ولكن هل هذا كل ما في الأمر ؟

**إذا كنا نعتقد أن الاسلام ليس مدنية ما بين المدنيات الأخر ، وليس نتاجاً بسيطاً لآراء البشر وجهودهم ، بل هو شرع سنه الله لتعمل به الشعوب في كل مكان وزمان ، فان الموقف يتبدل تماماً .** ولكن اذا كانت الثقافة الاسلامية في اعتقادنا نتيجة لاتباعنا شرعاً منزلاً فاننا حينئذ لا نستطيع ابداً أن نقول بانها كسائر الثقافات ، خاضعة لمرور الزمن ومقيدة بقوانين الحياة العضوية . ثم ان مايظهر انحلالاً في الاسلام ليس في الحقيقة إلا موتاً وخلاء يحلان في قلوبنا التي بلغ من خمولها وكسلها انها لا تستمع الى الصوت الازلي . ثم ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على ان الانسانية — مع نموها الحاضر — قد استطاعت أن تشب عن الاسلام ، بل انها لم تستطع ان تخلق نظاماً خلقياً احسن من ذلك الذي جاء به الاسلام . انها لم تستطع ان تبني فكرة الأخاء الانساني على اساس عملي ما كما استطاع الاسلام ان يفعل حينما اتى بفكرة القومية العليا : « الأمة » . انها لم تستطع ان تشيد صرحاً اجتماعياً يتضاءل التصادم والاحتكاك بين اهله فعلاً على مثال ما تم في النظام الاجتماعي في الاسلام . انها لم

تستطع ان ترفع قدر الانسان ، ولا ان تزيد في شعوره بالأمن ولا في رجائه الروحي ولا سعادته .

**ففي جميع هذه الامور نرى الجنس البشري في كل ما وصل اليه مقصراً كثيراً عما تضمنه المنهاج الاسلامي. فأين ما يبرر القول اذن بان الاسلام قد ذهبت ايامه ؟ أذلك لان أسسه دينية خالصة، والاتجاه الديني زي غير شائع اليوم ؟ ولكن اذا رأينا ان نظاماً بني على الدين قد استطاع ان يقدم منهاجاً عملياً للحياة اتم وامتن واصلح للمزاج النفساني في الانسان من كل شيء آخر يمكن العقل البشري ان يأتي به من طريق الاصلاح والاقتراح ، افلا يكون هذا نفسه حجة بالغة في ميزان الاستشراف الديني ؟**

لقد تأيد الاسلام — ولدينا جميع الادلة على ذلك — بما وصل اليه الانسان من انواع الانتاج الانساني ، لان الاسلام كشف عنها واشار اليها على انها مستحبة قبل ان يصل اليها الناس بزمن طويل.

ولقد تأيد ايضاً على السواء بما وقع اثناء التطور الانساني من قصور واخطاء وعثرات لأنه كان قد رفع الصوت عالياً واضحاً بالتحذير منها من قبل ان تتحقق البشرية ان هذه اخطاء . واذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني نجد ، من وجهة نظر عقلية محض ، كل تشويق الى ان نتبع الهدى الاسلامي بصورة عملية وبثقة تامة.

فاذا اعتبرنا ثقافتنا ومدنيتنا من هذه الناحية ، وصلنا ضرورةً الى نتيجة واحدة ، هي ان إحياءهما ممكن . نحن لا نحتاج الى فرض « اصلاح » على الاسلام ، كما يظن بعض المسلمين ، لان الاسلام كامل بنفسه من قبل . أما الذي نحتاج اليه فعلاً فانما هو

اصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا وغرورنا وقصر نظرنا ، وبكلمة واحدة معالجة مساوئنا نحن ، لا المساوىء المزعومة في الاسلام . ولكي نصل الى احياء اسلامي فاننا لا نحتاج الى أن نبحث عن مبادىء جديدة في السلوك نأتي بها من الخارج ، اننا نحتاج فقط الى ان نرجع الى تلك المبادىء القديمة المهجورة فنطبقها من جديد . ثم اننا قد نتقبل بلا ريب بواعث جديدة من الثقافات الاجنبية ، ولكننا لا نستطيع ان نتبدل بالبناء الاسلامي الكامل شيئاً ما أجنبياً ، سواء علينا أجاءنا من الغرب أم من الشرق . ان الاسلام كمؤسسة روحية واجتماعية غنيّ عن كل تحسين . وان كل تغيير في مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته وعلى تنظيمه الاجتماعي بافتئات من ثقافة أجنبية ما — ولو باشراق ضئيل — سيكون مدعاة الى الاسف الشديد ، وسترجع الخسارة حتماً علينا نحن .

ولكن مع كل هذا يجب علينا ان لا نخدع أنفسنا . نحن نعلم أن عالمنا ، العالم الاسلامي ، قد أضاع تقريباً حقيقته كعامل ثقافي مستقل . ولست أتكلم هنا عن الناحية السياسية من الانحلال الاسلامي ، فان أعظم نواحي حالتنا الحاضرة أهمية هي نطاق الحياة العقلية والحياة الاجتماعية : انها فقدان الايمان وتفكك التنظيم الاجتماعي عندنا . ولم يبق شيء سوى قليل من التماسك الاصلي الذي كان ، كما رأينا من قبل ، أخصّ ميزات المجتمع الاسلامي الاول . وان ما نحن فيه اليوم من فوضى ثقافية واجتماعية يدل بوضوح على أن قوى التوازن التي كانت سبب العظمة في العالم الاسلامي قد أوشكت اليوم ان تتلاشى . اننا اليوم مندفعون في التيار على

غير هدى وما من واحد يعلم الى أي مصير ثقافي نندفع . لم يبق لنا شجاعة ادبية ولا روح يقاوم عنا ذلك السيل الجارف من المؤثرات الاجنبية الهدامة لديننا ولمجتمعنا . لقد اطرحنا أحسن التعاليم الادبية التي ُقيض للعالم ان يعرفها . اننا نجحد ايماننا بينما كان ذلك الايمان لاسلافنا دافعاً عظيماً . اننا نخجل بايماننا بينما كانوا هم فخورين به ، اننا فقراء القلوب انانيون بينما كانوا هم يفتحون صدورهم للعالم كله بكرم وسماح . ان قلوبنا خالية خاوية بينما قلوبهم كانت عامرة بالايمان .

هذه الشكوى مشهورة لدى كل مفكر مسلم . وكل فرد قد سمعها تتردد مرة بعد مرة ، فهل هنالك فائدة من ترددها مرة اخرى ؟ أنا اعتقد ذلك ! اذ ليس لنا للخلاص من عار هذا الانحطاط الذي نحن فيه سوى مخرج واحد : علينا ان ُنشعر انفسنا بهذا العار بجعله نصب اعيننا ليل نهار ، وان نَطعَم مرارته الى ان نعزم عزماً اكيداً على ازالة اسبابه . وليس من فائدة ابداً في اخفاء الحقيقة عن انفسنا وفي الدعوى بان العالم الاسلامي ينمو بفضل النشاط الاسلامي نفسه ، وان الدعاة يعملون في القارات الاربع وان اهل الغرب قد اخذوا يرون جمال الاسلام شيئاً فشيئاً . ولا فائدة ايضاً في ان ندّعي هذا كله لنقنع انفسنا عن طريق الحجج التي تؤدي الى اطمئنان ضمائرنا بان اذلالنا لم يصل بعد الى الدرك الاسفل . لا انه الآن في الدرك الاسفل .

أفيكون هذا نهاية كل شيء ؟

ان توقنا الى التجدد ورغبة الكثيرين منا في ان نصبح خيراً مما

نحن الآن يجعلان من حقنا ان نأمل بان السيف لم يسبق العـدل بعد . ان هنالك بلا ريب سبيلاً الى التجدد ، وهذه السبيل بادية بوضوح لكل ذي عينين .

**تلك السبيل تتحقق بان ننفض عن انفسنا روح الاعتـذار ، الذي هو اسم آخر للانهزام العقلي فينا ، او هو اقناع لتشاؤمنا. اما الخطوة الثانية فهي ان نعمل بسنة نبينا على وعي منا وعزيمة.** وليست السنة الا تعاليم الاسلام نفسها قد وضعت موضع العمل بها فباتخاذنا اياها الكلمة الفصل في الاختيار وبتطبيقها على كل ما تتطلبه حياتنا اليومية نستطيع بسهولة ان نعرف البواعث التي ترد علينا من المدنية الغربية ، وما يجب ان نتقبله منها أو ان نرفضه . وبدلا من ان نخضع الاسلام باستخذاء للمقاييس العقلية الاجنبيـة ، يجب ان ننظر الى الاسلام على انه المقياس الذي نحكم به على العالم .

وفي الحق على كل حال ان كثيراً من مقاصد الاسلام الاولى قد القي عليها لون زائف ، وذلك بتأويلها تأويلاً ناقصـاً ولكنه مقبول لدى العامة . وان اولئك المسلمين الذين لا يستطيعون ان يرجعوا بانفسهم الى المصدر الاول ويصححوا به مدركاتهم ، لم يبق امامهم سوى صورة مشوهة بعض التشويه للاسلام ولكل ما هو اسلامي . ان جميع المقترحات المستحيلة التي يتقدم بها اليوم اناس ينسبون «الرشد» الى انفسهم على انها نتائج منطقية لما جاء به الاسلام في اول امره ليست في اكثر الاحوال الا اخيلة تواضعوا عليها للنتائج الاصلية ، ولكن عـلى اساس من المنطق القديم في الفلسفة الافلاطونية الجديدة، ذلك المنطق الذي إن جاز أن يُعدّ « عصرياً »

أو عمليا مقبولا في القرن الثاني او الثالث للهجرة فانه الآن مما قد أخنى عليه الدهر كثيراً . ان المسلم الذي يتربى على أسس غريبة ويكون في اكثر الاحيان غير ملم باللغة العربيـة ولا متضلع من مشاكل الفقه يميل بطبيعة الحال الى النظر الى تلك التأويـلات والمدارك الذاتية البالية على انها تمثل مقاصد الشارع الصحيحة، فتراه لخيبته امام ما يراه من النقص فيها ينفر منها وهو يظن انها الشريعة الاسلامية الحق. وهكذا إذا أردنا أن تعود تلك المقاصد الاسلامية الاولى قوةً مبدعة في حياة المسلمين من جديد، فان قيمة المقترحات الاسلامية يجب أن يُعاد فيها النظر على ضوء فهمنـا نحن للمصادر الاصلية ، ثم علينا ان تنفض عن الشريعة تلك الطبقة الكثيفـة من التأويلات العرفية التي تراكمت في خلال العصور حتى وصلت الينا فوجدناها ناقصة. ان نتيجة مثل هذا المسعى يمكن ان تكون بزوغَ فقه جديد يتفق تماماً مع مَصْدَري الاسلام : القرآن الكريم وسنة النبي ، وفي الوقت نفسه اجابةً لدواعي حياتنا الحاضرة ، بمثـل ما اجابت أوضاع الفقه القديم داعي الفلسفة الارسطوطاليسية وداعي الافلاطونية الجديدة ووافقت أحوال الحياة التي سادت قبل عصر الثورة الصناعية .

ولكننا اذا استطعنا ان نستعيد ما فقدناه من الثقـة بانفسنا ، فحينئذ فقط نأمل ان نجعل سبيلنا صعوداً من جديد . ولا يمكن أبداً أن نبلغ هذا الهدف اذا اتلفنا مؤسساتنا الاجتماعية الخاصة بنا ثم اخذنا في تقليد مدنية أجنبية – اجنبية لا بمعناهـا التاريخي والجغرافي فحسب ، بل بمعناها الروحي ايضاً .

واذا اعتبرنا الامور على ما هي جارية عليه اليوم، فان الاسلام يشبه مركباً يغرق، وكل يد تستطيع ان تكون عوناً فانما الحاجة اليها على ظهر المركب نفسه. ولكن لا يمكن ان ننقذ هذا المركب من الغرق إلا اذا أصغينا الى القرآن الكريم وفهمنا قوله: «لَقدْ كانَ لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخر» [1].

---

(١) سورة ٣٣ (الاحزاب): ٢١.

# فهرست

•